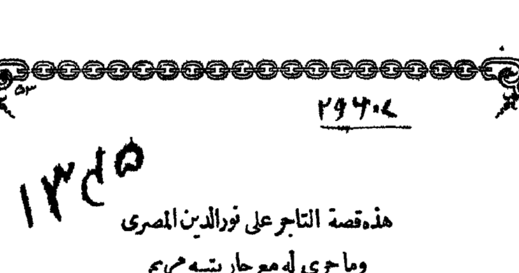




هذه قصة التاجر على نور الدين المصرى
وما جرى له مع جاريته مريم
الزنارية بنت ملك أفرنجه
وما فيها من العجائب
على التمام

﴿ محل مبيعه ﴾

بمكتبة ملتزمه حضرة الشيخ أحمد على المليجى

قريبا من الجامع الازهر بمصر

طبع بالمطبعة الادبية بسوق الخضار القديم بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومما يحكى ﴾ انه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الامناء الاحرار الا أنه كان مولعا بالسفر الى جميع الاقطار ويحب السير فى البرارى والقفار والسهول والاوعار وجزائر البحار فى طلب الدرهم والدينار وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوارى وطالما ركب الاخطار وقاسى فى السفر ما يشيب الاطفال الصغار وكان أكثر التجار فى ذلك الزمان مالا وأحسنهم مقالا صاحب خيول وبغال وبخاتى وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقمشة عديمة المثال من شدود حمصيه وثياب بعلبكيه ومقاطع سندسية وثياب مروزية وتفاصيل هندية وأزرار بغداديه وبرانس مغربيه ومماليك تركيه وخدم حبشية وجوارى روميه وغلمان مصريه وكانت غرائر أحماله من الحرير لانه كان كثير الاموال بديع الجمال مائس الاعطاف شهى الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر عاين عشاقه * والحرب فيما بينهم ثائر
فقال ما للناس فى ضجة * قلت على عينك يا تاجر

﴿ وقال آخر فى وصفه وأجاد وأتى فيه بالمراد ﴾

وتاجر فى وصله زارنا * والقلب من ألحاظه حائر
فقال لى مالك فى حيرة * قلت على عينك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليا نور الدين كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال نضر القد والاعتدال فجلس ذلك الصبى يوما من الايام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والاخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار فصار بينهم كأنه القمر بين النجوم بجبين أزهر وخد أحمر وعذار أخضر وجسم كأنه المرمر * كما قال الشاعر

ومليح قال صفنى * أنت فى الوصف رجيح
قلت قولا باختصار * كل ما فيك مليح

(وكما قال فيه بعض واصفيه)

له خال على صفحات خد * كنقطة عنبر فى صحن مرمر
وألحاظ باسياف تنادى * على عاصى الهوى الله أكبر

فعزمه أولاد التجار وقالوا له يا سيدى على نور الدين نشتهى فى هذا اليوم اننا نتفرج نحن واياك فى البستان الفلانى فقال لهم حتى أشاور والدى فانى لا أقدر أن أذهب الا باجازته فبينما هم فى الكلام واذا بوالده تاج الدين قد أتى فنظر اليه ولده وقال يا أبت ان أولاد التجار قد عزمونى لاجل أن أتفرج معهم فى البستان الفلانى فهل تأذن لى فى ذلك فقال نعم يا ولدى ثم انه أعطاه شيأ من المال وقال توجه معهم فركب أولاد التجار حميرا وبغالا وركب على نور الدين بغلة وسار معهم الى بستان فيه ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وهو مشيد الاركان رفيع البنيان له باب مقنطر كانه ايوان وباب سماوى يشبه أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الالوان الاحمر كانه مرجان والاسود كانه أنوف السودان والابيض كانه بيض الحمام وفيه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوق والتفاح كل هذه الانواع مختلفة الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه الشاعر

عنب طعمه كطعم الشراب * حالك لونه كلون الغراب
بين أوراقه زها فتراه * كبنان النساء بين الخضاب

وكما قال فيه الشاعر أيضا

عنا قيد حكت لما تدلت * على قضبانها جسمى نحولا
حكت عسلا وماء فى اناء * وعادت بعد حصرمها شمولا

ثم انتهوا الى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسا فى تلك العريشة كانه رضوان خازن الجنان ورأوا مكتوبا على باب العريشة هذين البيتين

سقى الله بستانا تدلت قطوفه * فمالت بها الاغصان من شدة الشرب
اذا رقصت أغصانه بيد الصبا * تنقطها الانواء باللؤلؤ الرطب

ورأوا مكتوبا فى داخل العريشة هذين البيتين

ادخل بنا يا صاح فى روضة * تجلو عن القلب صداهمه
نسيمها يعثر فى ذيله * و زهرها يضحك فى كمه

وفى ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطيار من جميع الاصناف والالوان مثل فاخت وبلبل وكروان وقمرى وحمام يغرد على الاغصان وأنهارها بها الماء الجارى وقد راقت تلك المجارى بازهار وأثمار ذات لذات كما قال فيه الشاعر

سرت النسيم على الغصون فشابهت * حسوداء تعثر فى جميل ثيابها
وحكت جداولها السيوف اذا انتضت * أيدى الفوارس من غلاف قرابها

وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر مدعلى الغصون ولم يزل * أبدا يمثل شخصها فى قلبه
حتى اذا فطن النسيم سرى لها * من غيرة فأمالها من قربه

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكر القيروان كما قال فيه الشاعر ورمان رقيق القشر يحكى * نهود البكر اذ برزت سفولا
اذا قشرته يبد ولدينا * من الياقوت ما بهر العقولا

(وكما قال فيه الشاعر)

ململمة تبدى مقاصد جوفها * يواقيت حمرا فى معاطف عبقرى
ورمانة شبهتها اذا رأيتها * بنهد العزارى أو بقبة مرمر
وفيها شفاء للمريض وصحة * وفيها حديث للنبى المطهر
وفيها يقول الله جل جلاله * مقالا بليغا فى الكتاب المسطر

وفى ذلك البستان تفاح سكرى ومسكى يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تفاحة جمعت لونين قد حكيا * خدى حبيب ومحبوب قد اجتمعا
لاحا على الغصن كالضدين من عجب * فذاك اسود والثانى به لمعا
تعانقا فبدا واش فراعهما * فاحمر ذا خجلا واصفر ذا ولعا

وفى ذلك البستان مشمش لوزى وكافورى وجيلانى وعنابى كما قال فيه الشاعر

والمشمش اللوزى يحكى عاشقا * جاء الحبيب له فحير لبه
وكفاه من صفة المتيم مابه * يصفر ظاهره ويكسر قلبه

(وقال فيه آخر وأجاد)

أنظر الى المشمش فى زهره * حدائق يجلو سناها الحدق
كالانجم الزهر اذا مازهت * فالغصن يزهو بها فى الورق

وفى ذلك البستان برقوق وقراصى وعناب تشفى السقيم من الاوصاب والتين فوق أغصانه ما بين أحمر وأخضر يحير العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر

كأنما التين يبدو منه أبيضه * مع أخضر بين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد * جن الظلام بهم باتوا على حذر

(وقال آخر وأجاد)

أهلا بتين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضمومة * قد جمعت بلا حلق

(وقال آخر وأجاد)

أنعم بتين طاب طعما وا كتسى * حسنا وقارب منظرا من مخبر
يبدى تعاطيه اذا ماذقته * ريح الاقاح وطيب طعم السكر

وحكى اذا ماصب فى أطباقه * أكرا صنعن من الحرير الاخضر

(وما أحسن قول بعضهم)

قالوا وقد ألفت نفسى تفكهها * بغيرفا كهة فى حبها هاموا
لاى شئ تحب التين قلت لهم * للتين قوم وللجميز أقوام

(وأحسن منه قول الآخر)

التين يعجبنى عن كل فا كهة * لما استوى والتوى فى غصنه الزاهى
كأنه عابد والسحب ماطرة * فاضت مدامعه من خشية الله

وفى ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ماهو مختلف الالوان صنوان وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تهنيك كمثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفره
شبيهة بالبكر فى خدرها * والوجه منها مسبل السترة

وفى ذلك البستان من الخوخ السلطانى ماهو مختلف الالوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر كانما الخوخ فى روضة * وقد بدا خده العندمى

بنادق من ذهب أصفر * قد خضبت وجهها بالدم

وفى ذلك البستان من اللوز الاخضر ماهو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبه من داخل ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسد رطب * مخالفة الاشكال من صنعة الرب
تريه الردى فى ليله ونهاره * وان يكن المسجون فيها بلا ذنب

(وقال آخر وأجاد)

أما ترى اللوز حين تظهره * من الافانين كف مقتطف
وقشره قد جلى القلوب لنا * كانه الدر داخل الصدف

(وأحسن منه قول الآخر)

ياحسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد كانما زهوره * نبت عذار الارمد
وقد غدت تلو به * من دوجامع مفرد كانها لآلئ * تصان فى زبرجد

(وقال آخر وأجاد)

ما أبصرت عيناى مثل اللوز ذا * فى حسنه لما بدت أنواره
الرأس منه باشتعال شائب * حين انتشا واخضر منه عذاره

وفى ذلك البستان النبق مختلف الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض واصفيه هذا الشعر

انظر الى النبق فى الاغصان منتظما * كشمش معجب يزهو على القضب
كان صفرته للناظرين غدت * تحكى جلاجل قد صيغت من الذهب

(وقال آخر وأجاد)

وسدرة كل يوم * من حسنها فى فنون
كانما النبق فيها * وقد بدا للعيون
جلاجل من نضار * قد علقت فى غصون

وفى ذلك البستان النارنج كانه صولجان كما قال فيه الشاعر الولهان

وحمراء مثل الكف تزهو بحسنها * فظاهرها نار و باطنها ثلج
ومن عجب ثلج مع النار لم يذب * ومن عجب نار وليس لها وهج

(وقال بعضهم وأجاد)

وأشجار نارنج كأن ثمارها * اذا ما بدت للناظر المتفرس
خدود نساء قد تبرجن زينة * بايام عيد فى غلائل سندس

(وقال آخر وأجاد)

كان ربا النارنج اذ هبت الصبا * وأضحت به الاغصان وهى تميد
خدود عليها بهجة الحسن أقبلت * عليها بأوقات السلام خدود

(وقال آخر وأجاد)

وشادن قلت له صف لنا * بستاننا هذا ونارنجنا
فقال لى بستانكم طلعتى * ومن جنى النارنج وردى جنى

وفى ذلك البستان الاترج لونه كلون التبر وقد حط عن أعلى مكان وتدلى فى الاغصان فمالت به وكانه سبائك العقيان وقد قال فيه الشاعر

أما ترى أيكة الاترج مثمرة * يخشى عليها اذا مالت من العطب
كانها عندما مر النسيم بها * غصن تحمل قضبانا من الذهب

وفى ذلك البستان الكباد متدليا فى أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد

وكبادة بين الرياض نظرتها * على غصن رطب كقامة أغيد
اذا ميلتها الريح مالت كاكرة * بدت ذهبا فى صولجان زبرجد

وفى ذلك البستان الليمون زكى الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرته زينة مجانيه وريحه يزهو لجانيه كما قال فيه بعض واصفيه

أما ترى الليمون لما بدا * يأخذ أشراقه بالعيان
كانه بيض دجاج وقد * لطخته الجنس بالزعفران

وفى ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضروات والمشمومات من الياسمين

والفاغية والفل والسنبل العنبري والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه كانه قطعة من الجنان لرائيه اذا دخل العليل خرج منه كالاسد الغضبان لا يقدر على وصفه اللسان لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان كيف لا واسم بوابه رضوان لكن بين المقامين شتان (فلما) تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان من لواوينه وأجلسوا نور الدين في وسط الليوان على نطع من الاديم المزركش متكئا على مخدة محشوة بريش النعام وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة من ريش النعام مكتوبا عليها هذان البيتان

ومروحة معطرة النسيم * تذكر طيب أوقات النعيم
وتهدى طيبها في كل وقت * الى وجه الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب وجلسوا يتحدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم وكل منهم يتامل في نور الدين وينظر الى حسن صورته وبعد ان اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أواني من الصيني والبلور لان بعض أولاد التجار كان أوصى أهل بيته بها قبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة مما درج وطار وسبح في البحار كالقطا والسمان وافراخ الحمام وشياه الضان وألطف السمك فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من الاكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب وقدموا لنور الدين منديلا مطرزا بالذهب الاحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة وشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث واذا بخولي البستان ذهب وجاء بسلة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا ساداتنا في المشموم فقال بعض أولاد التجار لا باس به خصوصا الورد فانه لا يرد فقال البستاني نعم ولكن عادتنا اننا لا نعطي الورد الا بالمنادمة فمن أراد أخذه فليأت بشئ من الشعر يناسب المقام وكان أولاد التجار عشرة أشخاص فقال واحد منهم نعم اعطني وانا أنشدك شيأ من الشعر يناسب المقام فناوله حزمة من الورد فاخذها وأنشد هذه الابيات

للورد عندي محل * لانه لا يمل
كل الرياحين جندي * وهو الامير الاجل
ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ذلوا

ثم ناول الثاني حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

دونك يا سيدي وردة * تذكرك المسك أنفاسها
كغادة أبصرها عاشق * غطت بأكمامها رأسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

وردفهس نسر القلب رؤيته * تحكي روائحه ما طاب من ند
قد ضمه الغصن في أوراقه طربا * كقبلة بفم من غير ما صد

ثم ناول الرابع حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

أما ترى دوحة الورد التي ظهرت * لها بدائع قد ركبن في قضب
كأنهن يواقيت يطوف بها * زبرجد قد حوى شذرا من الذهب

ثم ناول الخامس حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

قضب الزبرجد قد حملن واغما * أثمارهن سبائك العقيان
وكان وقع أقطر من أوراقه * دمع بكته فواتر الاجفان

ثم ناول السادس حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

ياوردة لبديع الحسن قد جمعت * وأودع الله فيها لطف أسرار
كأنها خد محبوب ونقطته * لدى انتواصل مشتاق بدينار

ثم ناول السابع حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

قلت للورد ما لشوكك يؤذي * كل من مسه سريع الجراح
قال لي معشر الرياحين جندي * أنا سلطانها وشوكي سلاحي

ثم ناول الثامن حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

رعى الله وردا غدا أصفر * بهيا نضيرا يحاكي النضار
وحسن غصون به أثمرت * وحملن منه شموسا صغار

ثم ناول التاسع حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

شجرات ورد أصفر جذبت * في قلب كل متيم طربا
عجبا لها من دوحة سقيت * ماء اللجين فاثمرت ذهبا

ثم ناول العاشر حزمة وردفاخذها وأنشد هذين البيتين

ألم تر أن جند الورد يزهو * بصفر من مطالعه وحمر
وقد شبهته والشوك فيه * نصال زمرد في ترس تبر

فلما استقر الورد في أيديهم أحضر البستاني سفرة المدام ووضع بينهم صينية مزركشة بالذهب الاحمر وأنشد يقول

هتف الفجر بالسنا فاسق خمرا * عانسا تجعل الحليم سفيها
لست أدري من لطفها وصفاها * أبكاس ترى أم الكاس فيها

ثم ان خولي البستان ملأ وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نور الدين ابن التاجر تاج الدين فملأ خولي البستان كاسا وناوله اياه فقال له نور الدين أنت تعرف أن هذا شئ

لا أعرفه ولا شربته قط لان فيه اثما كبيرا وقد حرم في كتاب الرب القديم فقال خولي البستان يا سيدي نور الدين ان كنت ما تركت شربه الا من أجل الاثم فان الله سبحانه وتعالى كريم حليم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ورحمته وسعت كل شيء ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كيف شئت فان الله ذو كرم * وما عليك ان أذنبت من باس
الا اثنتين فلا تقربهما أبدا * الشرك بالله والاضرار بالناس

ثم قال واحد من أولاد التجار بحياتي عليك يا سيدي نور الدين أن تشرب هذا القدح وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق وآخر وقف بين يديه على أقدامه فاستحى نور الدين وأخذ القدح من خولي البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مر فقال له الشاب خولي البستان يا سيدي على نور الدين لولا أنه مر ما كانت فيه هذه المنافع ألم تعلم ان كل حلو اذا أكل على سبيل التداوي يجده الآكل مرا وان هذه الخمرة منافعها كثيرة فمن جملة منافعها انها تهضم الطعام وتصرف الهم والغم وتزيل الرياح وتروق الدم وتصفي اللون وتنعش البدن وتشجع الجبان وتقوي همة الرجل على الجماع ولو أنا ذكرنا منافعها كلها لطال علينا شرح ذلك وقال بعض الشعراء

شربنا وعفو الله من كل جانب * وداويت أسقامي بمرتشف الكاس
وما غرني فيها وأعرف اثمها * سوى قوله فيها منافع للناس

ثم ان خولي البستان نهض قائما على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعا من مخادع ذلك الايوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها لنور الدين في القدح وقال له يا سيدي ان كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا فعند ذلك أخذ علي نور الدين القدح وشربه ثم ملأ الكاس واحد من أولاد التجار وقال يا سيدي علي نور الدين أنا عبدك وقام آخر وقال أنا خادمك وقام آخر وقال من أجل خاطري وقام آخر وقال بالله عليك يا سيدي علي نور الدين اجبر بخاطري ولم يزل أولاد التجار العشرة بنور الدين الى أن سقوه العشرة أقداح كل واحد قدحا وكان باطن نور الدين بكرا عمره ما شرب خمرا قط الا في تلك الساعة فدار الخمر في دماغه وقوي عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه وقال يا جماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح الا أنه يحتاج الى سماع طيب فان الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده كما قال الشاعر

أدرها بالكبير وبالصغير * وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني * رأيت الخيل تشرب بالصفير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية * كأنها ليلة طرية * أو فضة نقية * أو دينار في صينية * أو غزال افي برية * بوجه يخجل الشمس المضيئة * وعيون بابلية * وحواجب كأنها قسي محنية * وخدود وردية * وأسنان لؤلؤية * ومراشف سكرية * وعيون مرخية * ونهود عاجية وبطن خماصية * وأعكان مطوية * وأرداف كأنها مخدات محشية وفخذين كالجداول الشامية * وبينهما شئ كأنه صرة في بقجة مطوية * كما قيل فيها

ولو أنها للمشركين تعرضت * رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا
ولو أنها في الغرب لاحت لراهب * لخلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تفلت في البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا

﴿ وكما قال آخر ﴾

أبهى من البدر لكلاء العيون بدت * كأنما قنصتها كف آساد
أرخت عليها الليالى من ذوائبها * بيتا من الشعر لم يشدد بأوتاد
من ورد وجنتها النيران ما اتقدت * الا بأفئدة ذابت وأكباد
فلو رآها حسان العصر قن لها * على الرؤس وقلن الفضل للبادى

﴿ وما أحسن قول بعض الشعراء ﴾

ثلاثة منعتها عن زيارتنا * خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلى وما * حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره * والحلى تنزعه ما حيلة العرق

وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر * في ليلة أربعة عشر * وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر * فوق جبين أزهر * تدهش العقول * وتحير أرباب المعقول * وهي في غاية الحسن والجمال * ورشاقة القد والاعتدال * كأنها المرادة بقول الشاعر

أقبلت في غلالة زرقاء * لازوردية كلون السماء
فتحققت في الغلالة منها * قمر الصيف في ليالى الشتاء

﴿ وما أحسن قول الآخر وأجوده ﴾

جاءت مبرقعة فقلت لها اسفرى * عن وجهك القمر المنير الازهر
قالت أخاف العار قلت لها اقصرى * بحوادث الايام لا تتحيرى
رفعت نقاب الحسن عن وجناتها * فتساقط اللؤلؤ فوق الجوهر
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيمتى في المحشر
ونكون أول عاشقين تخاصما * يوم القيامة عند رب أكبر

واقول طول في الحساب وقوفنا * حتى يطول الى الحبيبة منظري

ثم ان الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية اعلمي ياسيدة الملاح * وكل كوكب لاح *
أننا ماقصدنا بحضورك في هذا المكان الآن تنادمي هذا الشاب المليح سيدي على نور
الدين فانه لم يأت محلنا هذا الا في هذا اليوم فقالت له الصبية ليتك كنت أخبرتني لاجل
أن أجيء بالذي كان معي فقال لها ياسيدتي أنا أروح وأجيء به اليك فقالت له الصبية
افعل ما بدا لك فقال لها اعطني أمارة فاعطته منديلا فعند ذلك خرج مسرعا وغاب
ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشكلين من الذهب فاخذته
الصبية منه وحلته ونفضته فنزل منه ثنتان وثلاثون قطعة خشب ثم ركبت الخشب في
بعضه على صورة ذكر في أنثى وأنثى في ذكر وكشفت عن معصميها اقامته فصار
عودا محكوكا مجرودا صنعة الهنود ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناء الوالدة على
ولدها وزغزغته باناملها فعند ذلك أن العود ورن ولاماكنه القديمة قد حن *
وتذكر المياه التي قد سقته والارض التي نبت منها وتربى فيها وتذكر النجارين
الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التي حملته
فصرخ وصاح وعدد وناح وكانها سألته عن ذلك كله فاجابها بلسان الحال منشدا هذه
الابيات لقد كنت عودا للبلابل منزلا * أميل بها وجدا وفرعي أخضر

ينوحون من فوقي فعلمت نوحهم * ومن أجل ذاك النوح سري مجهر
رماني بلا ذنب على الارض قاطع * وصيرني عودا نحيلا كما تروا
ولكن ضربي بالانامل مخبر * باني قتيل في الانام مصبر
فمن أجل هذا صار كل منادم * اذا مارأى نوحي يهيم ويسكر
وقد حنن المولى على قلوبهم * وقد صرت في أعلى الصدور أصدر
تعانق قدي كل من فاق حسنها * وكل غزال ناعس الطرف أحور
فلا فرق الله المهيمن بيننا * ولا عاش محبوب يصد ويهجر

ثم سكتت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت ذلك العود في حجرها وانحنت عليه انحناء
الوالدة على ولدها وضربت عليه طرقا عديدة ثم عادت الى طريقتها الاولى وأنشدت
هذه الابيات لو أنهم جنحوا للصب أورزاروا * لحط عنه من الاشواق أوزار

وعندليب على غصن يشاجره * كانه عاشق شطت به الدار
قم وانتبه فليالي الوصل مقمرة * كانها باجتماع الشمل أسحار
واليوم في غفلة عنا حواسدنا * وقد دعتنا الى اللذات أوتار
أماترى أربعا للهو قد جمعت * آس وورد ومنثور ونوار

واليوم قد جمعت للحظ أربعة * صب وخل ومشروب ودينار
فاظفر بحظك فى الدنيا فلذتها * تفنى وتبقى روايات وأخبار

فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الابيات نظر اليها بعين المحبة حتى كاد لا يملك نفسه من شدة الميل اليها وهى الاخرى كذلك لانها نظرت الى الجماعة الحاضرين من أولاد التجار كلهم والى نور الدين فرأته بينهم كالقمر بين النجوم لانه كان رخيم اللفظ والدلال كامل القد والاعتدال والبهاء والجمال ألطف من النسيم وأرق من التسنيم ثم أنشدت هذه الابيات

قسما بوجنته وباسم ثغره * وبأسهم قد راشها من سحره
وبلين معطفه ونبل لحظه * وبياض غرته وأسود شعره
وبحاجب حجب الكرى عن ناظرى * وسطا على بنهيه وبأمره
وعقارب قد رسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهجره
وبورد خديه وآس عذاره * وعقيق مبسمه ولؤلؤ ثغره
وبغصن قامته الذى هو مثمر * رمانه يزهو حناه بصدره
وبردفه المرتج فى حركاته * وسكونه وبرقة فى خصره
وحرير ملمسه وخفة ذاته * وبما حواه من الجمال بأسره
ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروى طيبها عن نشره
وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال قلامة من ظفره

فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها أعجبه نظامها وكان قد مال من السكر فجعل يمدحها ويقول

عوادة مالت بنا * فى نشوة المنتبذ * قالت لنا أوتارها * أنطقنا الله الذى

فلما تكلم نور الدين بهذا الكلام وأنشد هذا الشعر والنظام نظرت له تلك الصبية بعين المحبة وزادت فيه عشقا وغراما وقد صارت متعجبة من حسنه وجماله ورشاقة قده واعتداله فلم تملك نفسها بل احتضنت العود ثانيا وأنشدت هذه الابيات

يعاتبنى على نظرى اليه * ويهجرنى وروحى فى يديه
ويبعدنى ويعلم ما بقلبى * كأن الله قد أوحى اليه
كتبت مثاله فى وسط كفى * وقلت لناظرى عول عليه
فلا عينى ترى عنه بديلا * ولا قلبى يصبرنى لديه
فيا قلبى نزعتك من فؤادى * لانك بعض حسادى عليه
اذا ما قلت يا قلبى تسلى * فقلبى لم يمل الا اليه

فلما أنشدت الصبية تلك الابيات تعجب نور الدين من حسن شعرها و بلاغة كلامها وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد والهيام ولم يقدر أن يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال اليها وضمها الى صدره ضمة العاشق الولهان فانطبقت عليه وصارت بكليتها لديه وقبلته بين عينيه وقبل هو فاها بعد ضم القوام ولعب معها فى التقبيل كزق الحمام فالتفتت له وفعلت معه مثل ما فعل معها فهام الحاضرون وقاموا على أقدامهم فاستحى نور الدين ورفع يده عنها ثم انها أخذت عودها وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت الى الطريقة الاولى وأنشدت هذه الابيات

قمر يسل من الجفون اذا انثنى * عضبا ويهزأ بالغزال اذا رنا
ملك محاسنه البديعة جنده * ولدى الطعان قوامه يحكى القنا
لو أن رقة خصره فى قلبه * ماجار قط على المحب ولا جنى
يا قلبه القاسى و رقة خصره * هلا نقلت الى هنا من ههنا
يا عاذلى فى حبه كن عاذرى * فلك البقاء بحسنه ولى الفنا

فلما سمع نور الدين حسن كلامها وبديع نظامها مال اليها من الطرب ولم يملك عقله من شدة العجب ثم انه أنشد هذه الابيات

لقد خلتها شمس الضحى فتخيلت * لكن لهيب الحر منها بمهجتى
وماذا عليها لو أشارت فسلمت * علينا باطراف البنان وأومت
رأى وجهها اللاحى فقال وتاه فى * محاسنها اللاتى عن الحسن جلت
أهذى التى تدهمت شوقا بحبها * وانك معذور فقلت هى التى
رمتنى بسهم اللحظ عمدا وما رثت * لحالى وذلى وانكسارى وغربتى
فاصبحت مسلوب الفؤاد متيما * أنوح وأبكى طول يومى وليلتى

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها وضربت عليه باحسن حركاتها وأعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الابيات

وحيات وجهك يا حياة الانفس * لا حلت عنك يئست أم لم تيئس
فلئن جفوت فان طيفك واصل * أوغبت عن عينى فذكرك مؤنسى
يا موحشا طرفى وتعلم اننى * أبدا بغير هواك لم استأنس
خداك من ورد ورد يقلك خمرة * هلا سمحت بها بهذا المجلس

فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غاية الطرب وتعجب منها غاية العجب ثم أجابها على شعرها بهذه الابيات

ما أسفرت عن محيا الشمس فى الغسق * الا تحجب بدر التم فى الافق

ولا بدت لعيون الصبح طرتها * الاوعوذت ذاك الفرق بالفلق
خذ عن مجاري دموعي في تسلسلها * وار وحديث الهوى من أقرب الطرق
ورب رامية بالنبل قلت لها * مهلا بنبلك ان القلب في فرق
ان كان دمعي لبحر النيل نسبته * فان ودك منسوب الى الملق
قالت فهات جميع المال قلت خذي * قالت ونومك أيضا قلت من حدقي

فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طار عقلها واندهش لبها وقد احتوى على مجامع قلبها فضمته الى صدرها وصارت تقبله تقبيلا كزق الحمام وكذلك هو الآخر قابلها بتقبيل متلاحق ولكن الفضل للسابق وبعد أن فرغت من تلك التقبيلات أخذت العود وأنشدت هذه الابيات

و يلاه و يلي من ملامة عاذلي * أشكوه أم أشكو اليه تململي
ياهاجري ما كنت أحسب أنني * ألقى الاهانة في هواك وأنت لي
عنفت أرباب الصبابة بالهوى * وأبحت فيك لعاذليك تذللي
بالامس كنت ألوم أرباب الهوى * واليوم أعذر كل صب مبتلي
وان اعترتني من فراقك شدة * أصبحت أدعو الله باسمك ياعلي

فلما فرغت تلك الصبية من شعرها أنشدت أيضا هذين بيتين

قالت لي العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ورحيق فيه السلسل
ندعوا اله العالمين يجيبنا * ويقول فيه الكل متنايا علي

فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظم تعجب من فصاحة لسانها وشكرها على ظرافة افتتانها وأثنى عليها غاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء نور الدين عليها قامت من وقتها وساعتها على قدميها وقلعت جميع ما كان عليها من ثياب ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست على ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلى شامتي خديه ووهبت له جميع ذلك وقالت له اعلم ياحبيب قلبي ان الهدية على مقدار هاديها فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها في فمها وخديها فلما انقضى ذلك ولم يدم الا الحي القيوم رازق الطاوس واليوم قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدميه فقالت الصبية الى أين ياسيدي فقال لها الى بيت والدي فحلف عليه أولاد التجار أنه ينام عندهم فأبى وركب بغلته ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه وقالت له ياولدي ماسبب غيابك الى هذا الوقت والله انك قد شوشت علي وعلى والدك بغيابك عنا وقد اشتغل خاطرنا عليك ثم ان أمه تقدمت اليه تقبله في فمه فشمت منه رائحة الخمر فقالت لاحول ولاقوة الا بالله العلي العظيم ياولدي كيف بعد الصلاة

والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصي من له الخلق والامر فبينما هما في الكلام واذا بوالده قد أقبل ثم ان نور الدين ارتمى في الفراش ونام فقال أبوه ما لنور الدين هكذا فقالت له أمه كان رأسه أوجعته من البستان فعند ذلك تقدم له والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر فقال ويلك يا ولدي هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو سكران ولطمه بها فجاءت اللطمة بالامر المقدر على عين والده اليمنى فسالت على خده فوقع على الارض مغشيا عليه واستمر في غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الورد فلما أفاق من غشيته أراد أن يضربه فنعته أمه فحلف بالطلاق من أمه انه اذا أصبح الصباح لابد من قطع يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره الى أن غلب عليه النوم فصبرت الى أن طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له يا نور الدين ما هذا الفعل القبيح الذي فعلته مع والدك فقال لها وما الذي فعلته مع والدي فقالت انك لطمته بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد حلف بالطلاق انه اذا أصبح الصباح لابد أن يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم فقالت له أمه يا ولدي ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغي لك أن تقوم في هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفي عند خروجك حتى تصل الى أحد من أصحابك وتنتظر ما يفعله الله فانه يغير حالا بعد حال ثم ان أمه فتحت صندوق المال وأخرجت منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له يا ولدي خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالحك فاذا فرغت منك يا ولدي فارسل اعلمني حتى أرسل اليك غيرها واذا راسلتني فارسل الى أخبارك سرا فلعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ثم انها ودعته وبكت البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد فعند ذلك أخذ نور الدين كيس الدنانير من أمه وأراد أن يخرج فرأى كيسا كبيرا قد نسيته أمه بجنب الصندوق فيه ألف دينار فأخذه نور الدين ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الزقاق وتوجه قبل الفجر الى جهة بولاق فلما أصبح الصباح وقامت الخلائق توحد الملك الفتاح وخرج كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما قسم الله تعالى له كان نور الدين وصل الى بولاق فصار يمشي على ساحل البحر فرأى مركبا سقالتها ممدودة والناس تطلع فيها وتنزل منها ومراسيها أربع مدقوقة في البر ورأى البحرية واقفين فقال لهم نور الدين الى أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة اسكندرية فقال لهم نور الدين خذوني معكم فقالوا أهلا وسهلا ومرحبا بك يا شاب يا مليح فعند ذلك نهض نور الدين من وقته

وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوادة وفرش وغطاء ثم رجع الى
المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين فى المركب لم تمكث الا
قليلا وسارت من وقتها وساعتها ولم تزل تلك المركب سائرة حتى وصلت الى مدينة رشيد
فلما وصلوا الى هناك رأى نور الدين زورقا صغيرا سائرا الى الاسكندرية فنزل فيه
وعدى الخليج ولم يزل سائرا الى أن وصل قنطرة تسمى قنطرة الجامى فطلع نور الدين
من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه فلم ينظره أحد
من الواقفين بالباب فمشى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية فرآها مدينة
حصينة الاسوار حسنة المتنزهات تلذ لسكانها وترغب فى استيطانها قد ولى عنها فصل
الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهت أزهارها وأورقت أشجارها
وأينعت أثمارها وتدفقت أنهارها وهى مدينة مليحة الهندسة والقياس وأهلها أجناد
من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها وهى كما قيل فيها هذه الابيات

قد قلت يوما لخل * له مقال فصيح * اسكندرية صفها
فقال ثغر مليح * قلت وفيها معاش * فقال ان هب ريح

﴿وقال فيها أيضا بعض الشعراء﴾

اسكندرية ثغر * رضابه يستطاب * ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصبها غراب

فمشى نور الدين فى تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى ان وصل الى سوق التجارين ثم الى
سوق الصرافين ثم الى سوق النقلية ثم الى سوق الفكهانية ثم الى سوق العطارين وهو
يتعجب من تلك المدينة لان وصفها قد شاكل اسمها فبينما هو يمشى فى سوق
العطارين واذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه ثم أخذه من يده ومضى به
الى منزله فرأى نور الدين زقاقا مليحا مكنوسا مرشوشا قد هب عليه النسيم وراق وظللته
من الاشجار أوراق وفى ذلك الزقاق ثلاث دور وفى صدر ذلك الزقاق دار أساسها راسخ
فى الماء وجدرانها شاهقة الى عنان السماء قد كنسوا الساحة التى قدامها ورشوها
وتشم روائح الازهار قاصدوها يقابلها النسيم كانه من جنات النعيم فاول ذلك الزقاق
مكنوس مرشوش وآخره بالرخام مفروش فدخل الشيخ بنور الدين الى تلك الدار
وقدم له شيأ من المأكول وأكل معه فلما فرغ من الاكل قال له الشيخ متى كان القدوم
من مدينة مصر فقال له يا والدى فى هذه الليلة قال له ما اسمك قال على نور الدين فقال له
وما اسم أبيك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ يا ولدى يا نور الدين يلزمنى الطلاق ثلاثا
انك ما دمت مقيما فى هذه المدينة لا تفارقنى وأنا أخلى لك موضعا تسكن فيه فقال له
نور الدين يا سيدى الشيخ زدنى بك معرفة فقال يا ولدى اعلم انى دخلت مصر فى بعض

السنين بجارية فبعتها فيها واشتريت متجراً آخر فاحتجت الى ألف دينار فوزنها عني والدك تاج الدين من غير معرفة له بي ولم يكتب على بها منشوراً وصبر على بها الى ان رجعت الى هذه المدينة وأرسلتها اليه مع بعض غلماني ومعها هدية وقد رأيتك وانت صغير وان شاء الله تعالى اجازيك ببعض مافعل والدك معي فلما سمع نور الدين هذا الكلام أظهر الفرح والابتسام وأخرج الكيس الذي فيه الالف دينار وأعطاه لذلك الشيخ وقال له خذها وديعة عندك حتى أشتري بها شيأ من البضائع لاتجر فيه ثم ان نور الدين اقام في مدينة اسكندرية مدة أيام وهو يتفرج كل يوم في شارع من شوارعها ويأكل ويشرب ويتلذذ ويطرب الى أن فرغت المائة دينار التي كانت معه برسم النفقة فاتى الى الشيخ العطار ليأخذ منه شيأ من الالف دينار ينفقه فلم يجده في الدكان فجلس في الدكان ينتظره الى أن يعود وصار يتفرج على التجار ويتأمل ذات اليمين وذات اليسار فبينما هو كذلك واذا باعجمي قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه جاريه كأنها فضة نقيه أو بلطية في فسقية أو غزالة في بريه بوجه يخجل الشمس المضيئ وعيون بابلية ونهود عاجية وأسنان لؤلؤية وبطن خماصية وأعطاف مطوية وسيقان كاطراف ألية كاملة الحسن والجمال ورشاقة القد والاعتدال كما قال فيها بعض واصفيها

كأنها مثل ما تهواه قد خلقت * في رونق الحسن لا طول ولا قصر
الورد من خدها يحمر من خجل * والغصن من خدها زهو به الثمر
فالبدر طلعتها والمسك نكهتها * والغصن قامتها ما مثلها بشر
كأنها أفرغت من ماء لؤلؤة * في كل جارحة من جسمها قمر

ثم ان الاعجمي نزل عن بغلته وأنزل الصبية وصاح على الدلال فحضر بين يديه فقال له خذ هذه الجاريه وناد عليها في السوق فأخذها الدلال ونزل بها الى السوق وغاب ساعة ثم عاد ومعه كرسي من الآبنوس مزركش بالعاج الابيض فوضعه الدلال على الارض وأجلس عليه تلك الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحته وجه كأنه ترس ديلمي او كوكب دري وهي كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر في غاية الجمال الباهر كما قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جهلا حسن صورتها * فراح منكسفا وانشق بالغضب
وسرحة البان ان قيست بقامتها * تبت يداها اذا حمالة الحطب

﴿ وما أحسن قول الآخر ﴾

قل للمليحة في الخمار المذهب * ماذا فعلت بعابد مترهب

نورا لخمار ونور وجهك تحته * هزما بضوئهما جيوش الغيهب
واذا أتى طرفى ليسرق نظرة * فى الخد حراس رمته بكوكب

فعند ذلك قال الدلال التجار كم دفعتم فى درة الغواص وقنية القناص فقال له تاجر من التجار على بمائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلثمائة ولم يزل التجار يتزايدون فى تلك الجارية الى أن أوصلوا ثمنها الى تسعمائة وخمسين دينارا وتوقف البيع على الايجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الاعجمى سيدها وقال له ان جاريتك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا فهل تبيع ونقبض لك الثمن فقال الاعجمى هل هى راضية بذلك فانى أحب مراعاة خاطرها لانى ضعفت فى هذه السفرة وخدمتنى هذه الجارية غاية الخدمة فحلفت انى لا أبيعها الا لمن تشتهى وتريد وجعلت بيعها بيدها فشاورها فان قالت رضيت فبعها لمن أرادته وان قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال اليها وقال لها ياسيدة الملاح اعلمى ان سيدك قد جعل بيعك بيدك وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارا أفتأذنين لى أن أبيعك فقالت الجارية للدلال أرنى الذى يريد أن يشترينى قبل انعقاد البيع فعند ذلك جاء الدلال بها الى رجل من التجار وهو شيخ كبير هرم فنظرت اليه الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت الى الدلال وقالت له يادلال هل أنت مجنون أو مصاب فى عقلك فقال لها الدلال لاى شى ياسيدة الملاح تقولين لى هذا الكلام فقالت له الجارية أيحل لك من الله أن تبيع مثلى لهذا الشيخ الهرم الذى قال فى شأن زوجته هذه الابيات

تقول لى وهى غضبى من تدللها * وقد دعتنى الى شئ فما كانا
ان لم تنكنى نيك المرء زوجته * فلا تلمنى اذا أصبحت قرنانا
كأن ايرى شمع من رخاوته * فكلما عركته راحتى لانا

﴿وقال فى ايره أيضا﴾

لى اير نام لؤما وشؤما * كلما نلت من حبيب وصالا
واذا ما غدوت فى البيت فردا * طلب الطعن وحده والنزالا

﴿وقال فى ايره أيضا﴾

ولى اير سوء كثير الجفا * يعامل باللؤم من يكرمه
اذا نمت قام وان قمت نا * م فلا رحم الله من يرحمه

فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الهجو اغتاظ الغيظ الشديد الذى ما عليه من مزيد وقال للدلال يا انحس الدلالين ما جئت لنا فى السوق الا بجارية مشؤمة تجترى على وتهجونى بين التجار فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها ياسيدتى

لاتكونى قا لة الادب ان هذا الشيخ لذى هجوتيه هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب مشورة التجار فضحكت وأنشدت هذين البيتين

يصـــلح الحكام فى عصرنا * وذلك للحكام مما يجب
الشـــنق للوالى على بابه * والضرب بالدرة للمحتسب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله ياسيدى أنا لاأباع لهذا الشيخ فبعنى لغيره لانه ربما خجـل منى فباعنى الى آخر فاصير ممتهنة ولا ينبغى لى أن أدنس نفسى بالامتهان وقد علمت أن أمرى مفوض الى فقال لها الدلال سمعا وطاعة ثم توجه بها الى رجـل من التجار الكبار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها ياسيدتى هل أبيعك لسيدى شريف الدين هـذا بتسعمائة وخمسين دينارا فنظرت اليـه الجارية فرأته شيخا ولكن لحيته مصبوغة فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب فى عقلك حتى تبيعنى لهـذا الشيخ الفانى فهل أنا من كنكت المشاق أو من مهلهل الاخلاق حتى تطوف بى على شيخ بعد شيخ وكلاهما كجدار آيل الى السقوط أو عفريت محقه النجـم بالهبوط أما الاول فانه نطق لسان الحال فيه بقول من قال

طلبت قبلتها فى ثغـــرها فبكت * بدر دمـــع على الخـــدين منتظم
ثم انثنت كغـــزال وهى قائـلة * لا والذى أوجد الاشياء من عدم
ماكان لى فى بياض الشيب من ارب * أفى الحياة يكون لقطن حشو فمى

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

قالوا بياض الشعر نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضـيـاء
حتى بدا خط المشيب بمفرقى * فوددت أن لاأعـدم الظلماء
لو أن لحية من يشيب صحيفة * لمعاده ما اختارها بيضاء

﴿وأحسن منه قول الآخر﴾

ضيف ألم برأسى غـير محتشم * السيف أحسن فعلا منه باللمم
أبعد بعدت بياضا لابياض له * لانت أسود فى عينى من الظلم

وأما الآخر فانه ذو عيب وريب ومسود وجه شيب قد اتى فى خضاب شيبه بأقبح مين وأنشدت هذين البيتين

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها * كتمته عنك ياسمـعى ويابصرى
فقهقهت ثم قالت ان ذا عجب * تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

يامن يخضب بالسواد مشيبه * كى يستقر له الشباب ويحصل

هالك اختضب بسواد حظي مرة * ولك الضمان بانه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذي صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال يا أنحس الدلالين ما جئت في هذا اليوم الا بجارية سفيهة تسفه على كل من في السوق واحدا بعد واحد وتهجوهم بالاشعار والكلام الفشار ثم ان ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه فأخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال والله ما رأيت عمري جارية اقل حيا منك وقد قطعت رزقي ورزقك في هذا النهار وبغضني من أجلك جميع التجار فرآهما في الطريق رجل من التجار فزاد في ثمنها عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين فاستأذن الدلال الجارية في البيع فقالت أرني اياه حتى أنظر اليه وأسأله عن حاجة فان كانت تلك الحاجة في بيته فأنا أبيع له والا فلا فخلاها الدلال واقفة ثم تقدم اليه وقال له يا سيدي شهاب الدين اعلم ان هذه الجارية قالت لي انها تريد أن تسألك عن حاجة فان كانت عندك فانها تباع لك وها أنت قد سمعت ما قالته لاصحابك من التجار واني والله خائف أن أجيء بها اليك فتعمل معك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحا فان أذنت لي في المجيء بها اليك فعلت فقال له ائتني بها فقال الدلال سمعا وطاعة ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية اليه فنظرته الجارية وقالت له يا سيدي شهاب الدين هل في بيتك مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فقال لها نعم يا سيدة الملاح عندي في البيت عشر مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فبالله عليك ماذا تصنعين بهذه المدورات فقالت أصبر عليك حتى ترقد وأجعلها على فمك وأنفك حتى تموت ثم انها التفتت الى الدلال وقالت له يا أخس الدلالين كأنك مجنون حتى تعرضني من منذ ساعة على اثنين من المشايخ في كل واحد منهما عيبان وبعد ذلك تعرضني على سيدي شهاب الدين فيه ثلاثة عيوب الاول أنه قصير والثاني أن أنفه كبير والثالث ان لحيته طويلة وقد قال فيه بعض الشعراء

ما رأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الخلائق أجمع

فله لحية ذراع وأنف * طول شبر وقامة طول أصبع

﴿وقال بعضهم أيضا﴾

منارة الجامع في وجهه * كهيئة الخنصر في الخاتم

لو دخل العالم في أنفه * أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق الدلال وقال له يا أنحس الدلالين كيف تأتي الينا بجارية توبخنا وتهجونا واحدا بعد

واحدبا الاشعار والكلام الفشار فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها والله طول عمرى وأنا فى هذه الصناعة ما رأيت جارية أقل أدبا منك ولا أنحس على من يحملك لانك قد قطعت رزقى فى هذا اليوم ولاربحت منك الا الصفع على القفا والاخذ بالطوق ثم ان الدلال وقف بتلك الجاريه أيضا على تاجر صاحب عبيد وغلمان وقال لها اتباعين لهذا التاجر سيدى علاء الدين فنظرته فوجدته أحدب فقالت ان هذا أحدب وقد قال فيه الشاعر

قصرت منا كبه وطال قفاره * فحكا شيطان يصادف كوكبا
وكانه قد خاف أول سرة * واحس ثانية فصار محدبا *

﴿وقال فيه أيضا﴾ اذا رقى احدبكم بغلة * صار بها بين الورى مثله
اما الدا لمحك ولا تعجبوا * ان جفلت من تحته البغله

﴿وقال فيه أيضا بعض الشعراء﴾

ورب احدب زاد فى حدبائه * تحار قاطبة العيون تعجه
فكانه غصن تقصف يابس * ولواه من طول المدى اترجه

فعند ذلك اسرع الدلال اليها واخذها واتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه فوجدته أعمش فقالت ان هذا أعمش كيف تبيعنى له وقد قال فيه بعض الشعراء رمد به أمراضه * هدت قواه لحيته
يا قوم قوموا انظروا * هذا القذى فى عينه

فعند ذلك أخذها الدلال وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه فرأت لحيته كبيرة فقالت للدلال ويلك ان هذا الرجل كبش ولكن طلع ذيله من حلقه كيف تبيعنى له يا أنحس الدلالين اما سمعت ان كل طويل الدقن قليل العقل وعلى قدر طول اللحية يكون نقصان العقل. هذا أمر مشهور بين العقلاء كما قال بعض الشعراء

ما رجل طالت له لحية * فزادت اللحية فى هيبته
الا وما ينقص من عقله * يكون طولا زاد فى لحيته

﴿وكما قال بعض الشعراء أيضا﴾

لنا صديق وله لحية * طولها الله بلا فائده
كانها بعض ليالى الشتا * طويلة مظلمة بارده

فعند ذلك أخذها الدلال ورجع فقالت له الى أين تتوجه بى فقال لها الى سيدك الاعجمى وكفانا ما جرى لنا بسببك فى هذا النهار وقد تسببت فى منع رزقى ورزقه بقلة أدبك ثم ان الجارية نظرت فى السوق والتفتت يمينا وشمالا فوقع نظرها بالامر المقدر

على نور الدين على المصرى فرأته شابا مليحا نقى الخد رشيق القد وهو ابن أربعة عشر سنة بديع الحسن والجمال والظرف والدلال كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بجبين أزهر وخد أحمر وعنق كالمرمر وأسنان كالجوهر وريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض واصفيه

بدت لتحاكى حسنه وجماله * بدور وغزلان فقلت لها قفى
رويدك يا غزلان لا تتشبهى * بهذا ويا أقمار لا تتكلفى

﴿وما أحسن قول بعض الشعراء﴾

ومهفهف من شعره وجبينه * تغدو الورى فى ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذى فى خده * كل الشقيق بنقطة سوداء

فلما نظرت تلك الجارية الى نور الدين حال بينها وبين عقلها ووقع فى خاطرها موقعا عظيما وتعلق قلبها بمحبته فالتفتت الى الدلال وقالت له هل هذا الشاب التاجر الذى هو جالس بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودى ما زاد فى ثمنى شيأ فقال لها الدلال يا سيدة الملاح ان هذا الشاب غريب مصرى ووالده من أكابر التجار بمصر وله الفضل على جميع تجارها وأكابرها وله مدة يسيرة فى هذه المدينة وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعت من أصبعها خاتما ياقوت مثمنا وقالت للدلال أوصلنى عند هذا الشاب المليح ان اشترانى كان هذا الخاتم لك فى نظير تعبك فى هذا اليوم معنا ففرح الدلال وتوجه بها الى نور الدين فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القد والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفا فى وجهه ماء الجمال * ومن ألحاظه رمى النبال * ويشرب كل صب ان سقاه
عن صد رده والوصل حالى * فغرته وقامته وعشقى * كمال فى كمال فى كمال
وان غلائل الاثواب منه * مزررة على طوق الهلال * ومقلته وخاله ودمعى
ليال فى ليال فى ليال * وحاجبه وطلعته وجسمى * هلال فى هلال فى هلال
وطافت مقلتاه بكاس خمر * على العشاق ان عمر حلالى * وارشفنى على ظمأ زلالا
بباسم ثغره يوم الوصال * فقلبى عنده ودمى لديه * حلال فى حلال فى حلال

ثم ان الجارية نظرت الى نور الدين وقالت له يا سيدى بالله عليك أما أنا مليحة فقال لها يا سيدة الملاح وبدر كل كوكب لاح وهل فى الدنيا أحسن منك فقالت له الجارية ولاى شئ رأيت التجار كلهم زادوا فى ثمنى وأنت ساكت ما تكلمت بشئ ولا زدت فى ثمنى دينارا واحدا كأننى ما أعجبتك يا سيدى فقال لها يا سيدتى لو كنت فى بلدى كنت اشتريتك بجميع ما تملكه يدى من المال فقالت له يا سيدى أنا ما قلت لك اشترنى على غير مرادك

ولكن لو زدت فى ثمنى شيأ لجبرت بخاطرى ولو كنت لا تشترى لاجل أن تقول التجار لولا أن هذه الجارية مليحة مازاد فيها هذا التاجر المصرى لان أهل مصر لهم خبرة بالجوارى فعند ذلك استحى نور الدين من كلام الجارية الذى ذكرته واحمر وجهه وقال للدلال كم بلغ ثمن هذه الجارية قال بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا غير الدلالة وأما قانون السلطان فانه على البائع فقال نور الدين للدلال خلها على بألف دينار دلالة وثمنا فبادرت الجارية وتركت الدلال وقالت بعت نفسى لهذا الشاب المليح بألف دينار فسكت نور الدين فقال واحد بعناه وقال آخر يستاهل وقال آخر ملعون ابن ملعون من يزيد بعد هذا وقال آخر والله انهما يصلحان لبعضهما فلم يشعر نور الدين الا والدلال أحضر القضاة والشهود وكتبوا عقد البيع والشراء فى ورقة وناولها لنور الدين وقال له تسلم جاريتك الله يجعلها مباركة عليك لا تصلح الا لك ولا تصلح أنت الا لها وأنشد الدلال هذين البيتين

أتته السعادة منقادة * اليه تجرجر أذيالها

فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها

فعند ذلك استحى نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الالف دينار التى كان وضعها وديعة عند العطار صاحب أبيه وأخذ الجارية وأتى بها الى البيت الذى أسكنه فيه الشيخ العطار فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطا خلقا ونطعا عتيقا فقالت له ياسيدى هل أنا مالى منزلة عندك حتى تجىء بى فى غير بيتك الاصلى الذى فيه مصالحك ولاى شىء ما دخلت بى عند أبيك فقال لها نور الدين والله ياسيدة الملاح ما هذا بيتى الذى أنا فيه ولكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أخلاه لى وأسكننى فيه وقد قلت لك انى غريب وأننى من أولاد مدينة مصر فقالت له الجارية ياسيدى أقل البيوت يكفى الى أن تطلع الى بلدك ولكن ياسيدى بالله عليك أن تقوم وتأتى لنا بشىء من اللحم المشوى والمدام والنقل والفاكهة فقال لها نور الدين والله ياسيدة الملاح ما كان عندى من المال غير الالف دينار التى وزنتها فى ثمنك ولا أملك غير تلك الدنانير شيأ من المال وكان معى بعض دراهم صرفتها بالامس فقالت له أمالك فى هذه المدينة صديق تقترض منه خمسين درهما وتأتينى بها حتى أقول لك أى شىء تفعل بها فقال لها مالى صديق سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه الى العطار وقال له السلام عليك ياعم فرد عليه السلام وقال له ياولدى أى شىء اشتريت بالالف دينار فى هذا اليوم فقال له اشتريت بها جارية فقال له ياولدى هل أصابك جنون حتى تشترى جارية واحدة بألف دينار ياليت شعرى ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين ياعم انها جارية من أولاد الافرنج فقال له الشيخ اعلم ياولدى ان خيار أولاد الافرنج عندنا فى هذه المدينة

ثمنها مائة دينار ولكن والله ياولدي قد عملت عليك حيلة في هذه الجارية قال كنت حسبتها فبت عندها في هذه الليلة واقض غرضك منها واصبح فانزل بها السوق وبعها ولو كنت تخسر فيها مائة دينار وقدر أنها غرقت في البحر أو طلع عليك اللصوص في الطريق فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن ياعم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الالف دينار التي اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق معي شئ أنفقه ولا درهم واحد واني اريد من فضلك واحسانك أن تقرضني خمسين درهما أنفقها الى غد فأبيع الجارية وأردها اليك من ثمنها فقال الشيخ أعطيك ياولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال له ياولدي أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مليحة وربما تعلق بها قلبك فما يهون عليك أن تبيعها وأنت ما عندك شئ تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهما فتأتيني فاقرضك أول مرة وثاني مرة وثالث مرة الى عشرة مرات فاذا أتيتني بعد ذلك فلا أرد عليك السلام الشرعي وتضيع محبتنا مع والدك ثم ناوله الشيخ خمسين درهما فاخذها نور الدين واتى بها الى الجارية فقالت له ياسيدي رح الى السوق في هذه الساعة وهات لنا بعشرين درهما حريرا ملونا خمسة الوان وهات لنا بثلاثين درهما لحما وخبزا وفاكهة وشرابا ومشموما فعند ذلك ذهب نور الدين الى السوق واشترى كل ما طلبته تلك الجارية وأتى به اليها فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعاما فاخرا واتقنته غاية الاتقان ثم قدمت له الطعام فاكل وأكلت معه حتى اكتفيا ثم قدمت المدام وشربت هي واياه ولم تزل تسقيه وتؤانسه الى أن سكر فنامت الجارية من وقتها وساعتها وأخرجت من بقجتها جرابا من أديم طائف وفتحته وأخرجت منه مسمارين وقعدت فعملت شغلها الى ان فرغ فصار زنارا مليحا فلفته في خرقة بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخدة ثم قامت فتعرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد بجانبه صبية كأنها فضة نقية أنعم من الحرير وأطرى من الليه وهي أشهر من علم وأحسن من حمر النعم خماسية القد قاعدة النهد بحواجب كأنها قسي السهام وعيون كأنها عيون غزلان وخد وكأنها شقائق النعمان وبطن خماصية الاعكان وسرة تسع أوقية من دهن البان وفخذين كأنهما مخدتان محشوتان من ريش النعام وبينهما شئ يكل عن وصفه اللسان وتسكب عند وصفه العبرات فكان الشاعر قصدها بهذه الابيات

فمن شعرها ليل ومن فرقها فجر * ومن خدها ورد ومن ريقها خمر
ومن وصلها مأوى ومن هجرها لظى * ومن ثغرها در ومن وجهها بدر

﴿وما أحسن قول بعض الشعراء﴾

بدت قمرا ماست غصن بان * وفاحت عنبرا ورنت غزالا * كأن الحزن مشغوف بقلبي

فساعة هجرها يجد الوصالا * لها وجه يفوق على الثريا * ونور جبينها فاق الهلالا

﴿وقال بعضهم أيضا﴾

سفرن بدورا وانجلين أهلة * ومسن غصونا والتفتن جآذرا
وفيهن كحلاء العيون لحسنها * تود الثريا أن تكون لها ثرى

فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته الى تلك الجاريه وضمها الى صدره ومص شفتها الفوقية بعد أن مص التحتية ثم زق اللسان بين الشفتين وقام اليها فوجدها درة ما ثقبت ومطية لغيره ما ركبت فأزال بكارتها ونال منها الوصال وانعقدت بينهما المحبة بلا انفكاك ولا انفصال وتابع في خدها تقبيلا كوقع الحصى في الماء ورهزا كطعن الرماح في المهرة الشعواء لان نور الدين كان مشتاقا الى اعتناق الحور ومص الثغور وغمز الخصور وعض الخدود وضم النهود مع حركات مصرية وغنج يمانية وشهيق حبشية وفتور هنديه وغلم نوبيه وتحرز يفيه وأنين دمياطيه وحراره صعيديه وفتره سكندريه وكانت هذه الجارية جامعة لهذه الخصال مع فرط الجمال والدلال كما قال فيها الشاعر المفضال

هذي التي أنا طول الدهر ناسيها * فلا حفت الى من ليس يدنيها
كانها البدر في تكوين صورتها * سبحان خالقها سبحان باريها
ان كان ذنبي عظيما في محبتها * فليس لي توبة يوما أرجيها
قد صيرتني حزينا ساهرا دنفا * والب قد حار فكرا في معانيها
وأنشدت بيت شعر ليس يعرفه * الا فتى اعوان الشعر يرويها
لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

ثم نام نور الدين مع تلك الجاريه الى الصباح في لذة وانشراح لابسين حلل العناق محكمة الازرار آمنين طوارق الليل والنهار وتدبانا على أحسن حال ولم يخشيا من أحد الوصال ولا كثرة القيل والقال كما قال فيها الشاعر المفضال

زر من تحب ودع مقال حاسد * ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حلل الرضا * متوسدين بمعصم وبساعد
واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد بارد
يا من يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد
واذا صفا لك من زمانك واحد * نعم الصديق وعش بذلك الواحد

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح انتبه نور الدين من نومه فرآها أحضرت الماء

فاغتسل هو واياه واودى ما عليه من الصلاة ثم انته بما تيسر من المأكول والمشروب فاكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة وأخرجت الزنار الذى صنعته بالليل وناولته اياه وقالت له ياسيدى خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا الزنار فقالت يا سيدى هو الحرير الذى اشتريته البارحة بالعشرين درهما فقم واذهب به الى سوق العجم وأعطه للدلال لينادى عليه ولا تبعه الا بعشرين دينارا سالمة ليدك فقال لها نور الدين ياسيدة الملاح هل شئ بعشرين درهما يباع بعشرين دينارا يعمل فى ليلة واحدة فقالت له الجارية ياسيدى أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن اذهب به الى السوق واعطه للدلال فاذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى به الى سوق الاعاجم وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادى عليه وقعد نور الدين على مصطبة دكان فغاب الدلال عنه ساعة ثم أتى اليه وقال له ياسيدى قم اقبض ثمن زنارك فقد بلغ عشرين دينارا سالمة ليدك فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب واهتز من الطرب وقام ليقبض العشرين دينارا وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض الدنانير ذهب من ساعته واشترى بها كلها حريرا من سائر الالوان لتعمله الجارية كله زنانير ثم رجع الى البيت وأعطاها الحرير وقال لها اعمليه كله زنانير وعلمينى أيضا حتى أعمل معك فانى طول عمرى ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر مكسبا منها قط وانها والله أحسن من التجارة بألف مرة فضحكت الجارية من كلامه وقالت له ياسيدى نور الدين امض الى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفى غد ادفعها له من ثمن الزنار مع الخمسين درهما التى اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى الى صاحبه العطار وقال له ياعم أقرضنى ثلاثين درهما وفى غد ان شاء الله تعالى أجئ لك بالثمانين درهما جملة واحدة فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فأخذها نور الدين وأتى بها الى السوق واشترى بها لحما وخبزا ونقلا وفاكهة وشموما ومشروبا كما فعل بالامس وأتى به الى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية فأخذت اللحم وقامت من وقتها وساعتها وهيأت طعاما فاخرا ووضعته قدام سيدها نور الدين ثم بعد ذلك هيأت سفرة المدام وتقدمت هى واياه وصارت تملأ وتسقيه وهو يملأ ويسقيها فلما لعب المدام بعقلهما اعجبها حسن لطافته ورقة معانيه فانشدت هذين البيتين

أقول لاهيف حيا بكاس * لها من مسك نكهته ختام

أمن خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من الورد المدام

ولم تزل تلك الجارية تنادم نور الدين وينادمها وتعاطيه الكاس والطاس وتطلب أن يملأ لها ويسقيها ما تطيب به الانفاس واذا وضع يده عليها تمتنع منه دلالا وقد زادها السكر

حسناوأنشدت هذين البيتين

وهيفاء تهوى الراح قالت لصبها * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها
اذالم تدركأس المدام وتسقني * أبيتك مهجورا فخاف ملالها

ولم يزالا كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار على جري عادتها ولما فرغت من عملها فيه أصلحته واقته في ورقة ثم نزعت ثيابها ونامت بجانبه الى الصباح وكان بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور الدين وقضى شغله وناولته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشرين دينارا كما بعت نظيره بالامس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين دينارا وأتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فعاله معه ودعا له فقال له ياولدي هل أنت بعت الجارية فقال نور الدين كيف أبيع روحي من جسدي ثم انه حكى له الحكاية من المبتدى الى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له من أوله الى آخره ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال له والله ياولدي انك قد فرحتني وان شاء الله تعالى أنت بخير دائما فاني أود لك الخير لمحبتي لوالدك وبقاء محبتي معه ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته الى السوق واشترى اللحم والفاكهة والشراب وجميع ما يحتاج اليه على جري العادة وأتى به الى تلك الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية في أكل وشرب ولعب وانشراح وود ومنادمة مدة سنة وهي تعمل في كل ليلة زنارا فيبيعه بعشرين دينارا ينفق منها ما يحتاج اليه والباقي يعطيه لها تحفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد السنة قالت له ياسيدي نور الدين اذا بعت الزنار في غد فاشتر لي من ثمنه حريرا ملونا ستة ألوان فانه قد خطر ببالي أن أصنع لك منديلا تجعله على كتفك ما فرحت بمثله أولاد التجار ولا أولاد الملوك الكبار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وباع الزنار واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنارية تصنع في المنديل جمعة كاملة لانها كلما فرغت من زنار في ليلة تعمل في المنديل شيأ الى أن خلصته ثم ناولته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يمشي به في السوق فصار التجار والناس وأكابر البلد يقفون عنده صفوفا ليتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعته فاتفق أن نور الدين كان نائما ذات ليلة من الليالي فانتبه من منامه فوجد جاريته تبكي بكاء شديدا وتنشد هذه الابيات

دنا فراق الحبيب واقتربا * واحر باللفراق واحربا
تفتتت مهجتي فوا أسفي * على ليال مضت لنا طربا

لابدأن ينظرالحسودلنا * بعين سوء و يبلغ الارب
فما علينا أضر من حسد * ومن عيون الوشاة والرقبا

فقال لها نور الدين ياسيدتي مريم مالك تبكين فقالت له أبكي من ألم الفراق فقد أحس قلبي به فقال لها ياسيدة الملاح ومن الذي يفرق بيننا وأنا الآن أحب الخلق اليك وأعشقهم لك فقالت له ان عندي أضعاف ماعندك ولكن حسن الظن بالليالي يوقع الناس في الاسف وقد أحسن الشاعر حيث قال

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر
وفي السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر
وكم على الارض من خضر ويابسة * وليس يرجم الا ماله ثمر
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف * وتستقر باقصى قاعه الدرر

ثم قالت ياسيدي نور الدين اذا كنت تحرص على عدم الفراق فخذ حذرك من رجل افرنجي أعور العين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر الوجه كثير اللحية لانه هو الذي يكون سببا لفراقنا وقد رأيته أتى في تلك المدينة وأظن أنه ما جاء الا في طلبي فقال لها نور الدين ياسيدة الملاح ان وقع بصري عليه قتلته ومثلت به فقالت له مريم ياسيدي لا تقتله ولا تكلمه ولا تبايعه ولا تشاربه ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تحدثه بحديث أصلا وادع الله أن يكفينا شره ومكره فلما أصبح الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب به الى السوق وجلس على مصطبة دكان يتحدث هو وأولاد التجار فأخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان فبينما هو نائم واذا بذلك الافرنجي مر على ذلك السوق في تلك الساعة ومعه سبعة من الافرنج فرأى نور الدين نائما على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه في يده فقعد الافرنجي عنده وأخذ طرف المنديل وقلبه في يده واستمر يقلب فيه ساعة فاستحس به نور الدين فافاق من النوم فرأى الافرنجي الذي وصفته الجارية بعينه جالسا عند رأسه فصرخ عليه نور الدين صرخة عظيمة أرعبته فقال الافرنجي لاي شئ تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيأ فقال له نور الدين والله ياملعون لو كنت أخذت مني شيأ لكنت ذهبت بك الى الوالي فقال له الافرنجي يامسلم بحق دينك وما تعتقده أن تخبرني من أين لك هذا المنديل فقال نور الدين هو شغل والدتي عملته لي بيدها فقال له الافرنجي أتبيعه وتأخذ ثمنه مني فقال له نور الدين والله ياملعون لا أبيعه لك ولا لغيرك فانها ما عملته الا على اسمي ولم تعمل غيره فقال بعه لي وأنا أعطيك ثمنه في هذه الساعة خمسمائة دينار ودع التي عملته تعمل

لتشغره أحسن منه فقال له نور الدين أنا ما أبيعه أبدا لأنه لا نظير له فى هذه المدينة
فقال له الافرنجى ياسيدى وهل لا تبيعه بستمائة دينار من الذهب الخالص ولم يزل
يزيده مائة بعد مائة الى أن أوصله الى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على بغير بيعه أنا
ما أبيعه ولا بألفى دينار ولا بأكثر أبدا ولم يزل ذلك الافرنجى يرغب نور الدين بالمال فى
ذلك المنديل الى أن أوصله الى ألف دينار فقال له جماعة من التجار الحاضرين نحن
بعناك هذا المنديل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أبيعه والله فقال له تاجر من التجار
اعلم يا ولدى ان هذا المنديل قيمته مائة دينار ان كثر ووجد له راغب وان هذا
الافرنجى دفع فيه ألف دينار جملة فربحك تسعمائة دينار فأى ربح تريد أكثر من هذا
الربح فالرأى عندى انك تبيع هذا المنديل وتأخذ الالف دينار وتقول للتى عملته
تعمل أخرى أحسن منه وتربح أنت الالف دينار من هذا الافرنجى الملعون عدو
الدين فاستحى نور الدين من التجار وباع للافرنجى المنديل بالالف دينار ودفع له
الثمن فى الحضرة وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضى الى جاريته مريم يبشرها
بما كان من أمر الافرنجى فقال الافرنجى يا جماعة التجار احجزوا نور الدين فانكم
واياه ضيوف فى هذه الليلة فان عندى بتية خمر رومى من معتق الخمر وخروفا سمينا
وفاكهة ونقلا ومشموما فانتم تؤانسوننى فى هذه الليلة ولا يتأخر أحد منكم فقال
التجار ياسيدى نور الدين نشتهى أن تكون معنا فى مثل هذه الليلة لنتحدث
معك فى فضلك واحسانك أن تكون معنا نحن واياك ضيوف عند هذا
الافرنجى لانه رجل كريم ثم انهم حلفوا عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح
الى بيته ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين واخذوا معهم نور الدين
وذهبوا مع الافرنجى الى قاعة مطيبة بليوانين فاجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة
غريبة الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر ومكسور وعاشق ومعشوق وسائل
ومسؤل ثم وضع الافرنجى على تلك السفرة الاوانى النفيسة من الصينى والبلور
وكلها مملوءة بنفائس النقل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم الافرنجى بتية مملوءة من
الخمر الرومى المعتق وأمر بذبح خروف سمين ثم ان الافرنجى أوقد النار وصار يشوى
من ذلك اللحم ويطعم التجار ويسقيهم من ذلك الخمر ويغمزهم على نور الدين أن
يكثروا عليه بالشراب فلم يزالوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده فلما رآه الافرنجى
مستغرقا فى السكر قال آنستنا ياسيدى نور الدين فى هذه الليلة فمرحبا بك ثم مرحبا بك
وصار الافرنجى يؤانسه بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه وسارقه فى الحديث
ساعة زمنية ثم قال له ياسيدى نور الدين هل تبيعنى جاريتك التى اشتريتها بحضرة هؤلاء

التجار بالف دينار من مدة سنة وأنا أعطيك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف فابى نور الدين ولم يزل ذلك الافرنجي يطعمه ويسقيه ويرغبه في المال حتى أوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور الدين وهو في سكره قدام التجار بعتك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح الافرنجي بذلك القول فرحا شديدا وأشهد عليه التجار وباتوا في أكل وشرب وانشراح الى أن أصبح الصباح فصاح الافرنجي على غلمانه وقال لهم ائتوني بالمال فاحضروا المال فعد لنور الدين العشرة آلاف دينار نقدا وقال له ياسيدي نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريتك التي بعتها الى البيلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين فقال نور الدين ياملعون أنا ما بعتك شيأ وأنت تكذب علي وليس عندي جوار فقال له الافرنجي قد بعتني جاريتك وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع فقال التجار كلهم نعم يانور الدين أنت بعته جاريتك قدامنا ونحن نشهد عليك انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار تم فاقبض الثمن وسلمه الجارية والله يعوضك خيرا منها أتكره يانور الدين انك اشتريت جارية بالف دينار ولك سنة تتمتع بحسنها وجمالها وتتلذذ في كل يوم وليلة بمنادمتها ووصالها وبعد ذلك ربحت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصلي وفي كل يوم تعمل لك زنارا تبيعه بعشرين دينارا وبعد ذلك كله تنكر البيع وتستقل الربح أي ربح أكثر من هذا الربح وأي مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تحبها فها أنت قد شبعت منها في هذه المدة فاقبض الثمن واشتري غيرها أحسن منها أونزوجك بنتا من بناتنا بمهر أقل من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجمل منها ويصير معك باقي المال رأس مال في يدك ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة الى أن قبض العشرة آلاف دينار ثمن الجارية وأحضر الافرنجي م‍.. وقته وساعته القاضي والشهود فكتبوا له حجة بشراء الجارية التي اسمها مريم الز‌ارية من نور لدين هـذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر مريم الزنارية فانها قعدت تنتظر سيدها نور الدين جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى العشاء ومن لعشاء الى نصف الليل فلم يعد اليها سيدها المذكور فجزعت وصارت تبكي بكاء شديدا ف‍‍ سمعها الشيخ العطار وهي تبكي فارسل اليها زوجته فدخلت عليها فرأتها تبكي فقالت لها ياسيدتي م‍الك تبكين فقالت ياأمي اني قعدت أنتظر مجيء سيدي نور لدين فما جاء الى هـذا الوقت وأنا خائفة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من شاني لاجل أن يبيعني فدخلت عليه الحيلة وباعني فقالت لها زوجة الع‍‍ار ياسيدتي مريم لو اعطوا سيدك فيك ملء هـذه القاعة ذهبا لم يبعك لما أعرفه من محبته لك

ولكن ياسيدتي مريم ربما يكون جماعة أتوا من مدينة مصر من عند والده فعمل لهم عزومة في المحل الذي هم نازلون فيه واستحى أن يأتي بهم الى هذا المحل لانه لا يسعهم أو لان مرتبتهم أقل من أن يجيء بهم الى البيت أو أحب أن يخفي أمرك عنهم فبات عندهم الى الصباح وبأتي ان شاء الله تعالى اليك في غد بخير فلا تحملي نفسك هما ولا غما فهذا سبب غيابه عنك في هذه الليلة وها أنا أبيت عندك وأسليك الى أن يأتي اليك سيدك ثم ان زوجة العطار صارت تلاطف مريم وتسليها بالكلام الى أن ذهب الليل كله فلما أصبح الصباح نظرت مريم الى سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الافرنجي خلفه ووراءه جماعة التجار حواليه فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد كأنها سفينة في وسط بحر فلما رأتها المرأة العطار قالت لها ياسيدتي مريم مالي أراك قد تغير حالك واصفر وجهك فقالت لها الجارية ياسيدتي والله ان قلبي قد أحس بالفراق وبعد التلاق ثم ان الجارية تأوهت بتصاعد الزفرات وأنشدت هذه الابيات

لا تركنن الى الفراق * فانه مر المذاق * الشمس عند غروبها
تصفر من ألم الفراق * وكذاك عند شروقها * تبيض من فرح التلاق

ثم ان مريم الزنارية بكت البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد وتيقنت الفراق وقالت لزوجة العطار ياسيدتي أما قلت لك أن سيدي نور الدين قد عملت عليه حيلة من أجل بيعي فما أشك في أنه باعني في هذه الليلة لهذا الافرنجي وقد كنت حذرته منه ولكن لا ينفع حذر من قدر فقد بان لك صدق قولي فبينما هي وزوجة العطار في الكلام واذا بسيدها نور الدين قد دخل عليها في تلك الساعة فنظرت اليه الجارية فرأته قد تغير لونه وتشوش ذهنه ولاح على وجهه أثر الحزن والندم فقالت له ياسيدي نور الدين جعلت فداك مابالك وما الذي تغير منه حالك كأنك بعتني فبكى بكاء شديدا وتأوه وتنفس الصعداء وأنشد هذه الابيات

هي المقادير فلا تعتني الحذر * ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر
اذا أراد الله أمرا بامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذنيه وأعمى عينيه * وسل منه عقله سل الشعر
حتى اذا أنفذ فيه حكمه * رد اليه عقله ليعتبر
لا تقل فيما جرى كيف جرى * كل شيء بقضاء وقدر

ثم ان نور الدين اعتذر الى الجارية وقال لها والله ياسيدتي مريم انه قد جرى القلم بما قدر الله وحكم والناس قد عملوا على حيلة من أجل بيعك فدخلت على الحيلة فبعتك وقد

فرطت فيك أعظم تفريط ولكن عسى من حكم الفراق أن يمن بالتلاق فقالت له قد حذرتك من هذا وكان في وهمي ثم ضمته الى صدرها وقبلته بين عينيه وأنشدت هذه الابيات

وحق هواكم ماسلوت ودادكم * ولو تلفت روحي هوى وتشوقا
أنوح وأبكي كل يوم وليلة * كما ناح قمري على شجر النقا
تنغص عيشي بعدكم ياأحبتي * متى غبتم عني فمالى ملتقى

فبينما هما على هذه الحالة ينشدان الاشعار ويسكبان الدموع الغزار واذا بالافرنجي قد طلع عليهما وتقدم ليقبل يدي السيدة مريم فلطمته بكفها على خده وقالت له أبعدك الله يا ملعون فمازلت خلفي حتى خدعت سيدي ولكن ياعدو الله ان شاء الله تعالى لا يكون الاخير او أرمى كيدك في نحرك فضحك الافرنجي من قولها وتعجب من فعلها واعتذر اليها وقال لها ياسيدتي ثم أى شئ ذنبي أنا وانما سيدك نور الدين هذا هو الذى باعك برضا نفسه وطيب خاطره وانه وحق المسيح لو كان يحبك ما فرط فيك ولولا أنه فرغ غرضه منك ما باعك وقد قال بعض الشعراء

من ملنى فليمض عني عامدا * ان عدت أذكره فلست براشد
ماضاقت الدنيا على بأسرها * حتى ترنى راغبا في زاهد

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك أفرنجة وهي مدينة واسعة الجهات كثيرة الصنائع والغرائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة أبيها حديث غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى يطرب منه السامع و يطيب وذلك انها تربت عند أبيها وأمها في العز والدلال والانس والكمال وتعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة وغالب مهمات الصنائع مثل الزركشة والخياطة وصنعة الزنانير والعقادة ورمى الذهب على الفضة وغير ذلك وأتقنت صنائع الرجال والنساء حتى صارت ماهرة في كل صناعة وصارت فريدة في عصرها و وحيدة في دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من الحسن والجمال والظرف الذي لم يوجد مثله في نساء ولا رجال فخطبها ملوك الجزائر من أبيها وكل من خطبها منه يأبى أن يزوجها له لانه كان يحبها حبا شديدا ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة ولم يكن عنده بنت غيرها وكان معه من الاولاد الذكور كثير ولكنه كان مشغوفا بحبها أكثر منهم فاتفق انها مرضت في بعض السنين مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها اذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير الفلاني الذي في الجزيرة الفلانية وكان ذلك الدير معظما عندهم وينذرون له النذور و يتبركون به فلما عوفيت مريم من

مرضها أرادت أن توفى بنذرها الذى نذرته على نفسها لذلك الدير فأرسلها ملك أفرنجة الى ذلك الدير فى مركب صغيرة وأرسل معها بعضا من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لأجل خدمتها فلما قربت من الدير صادفها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين فى سبيل الله فأخذوا جميع ما فى تلك المركب من البطارقة والبنات والاموال والتحف فباعوا ما أخذوه فى مدينة القيروان فوقعت مريم فى يد رجل أعجمى تاجر من التجار وقد كان ذلك الاعجمى عنينا لا يأتى النساء ولم تنكشف له عورة على امرأة فجعلها للخدمة ثم ان ذلك الاعجمى مرض مرضا شديدا حتى أشرف على الهلاك وطال عليه المرض مدة شهور فخدمته مريم وبالغت فى خدمته الى أن عافاه الله من مرضه فتذكر ذلك الاعجمى منها الشفقة والحمية عليه والقيام بخدمته فأراد أن يكافئها على ما فعلته معه من الجميل فقال لها تمنى على يا مريم فقالت يا سيدى تمنيت عليك أن لا تبيعنى الا لمن أريده وأحبه فقال لها نعم لك على ذلك والله يا مريم ما أبيعك الا لمن تريدينه وقد جعلت بيعك بيدك ففرحت فرحا شديدا وكان الاعجمى قد عرض عليها الاسلام فأسلمت وعلمها العبادات فتعلمت من ذلك الاعجمى فى تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها وحفظها القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والاحاديث النبوية فلما دخل بها مدينة اسكندرية باعها لمن أرادته وجعل بيعها بيدها كما ذكرنا فأخذها على نور الدين كما أخبرناها هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك أفرنجة فانه لما بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال والشجعان فلم يقعوا لها على خبر بعد التفتيش فى جزائر المسلمين ورجعوا الى أبيها بالويل والثبور وعظائم الامور فحزن عليها أبوها حزنا شديدا فأرسل خلفها ذلك الاعور اليمين الاعرج الشمال لانه كان أعظم وزرائه وكان جبارا عنيدا ذا حيل وخداع وأمره أن يفتش عليها فى جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بملء مركب ذهبا ففتش عليها فى ذلك الملعون فى جزائر البحار وغالب المدن فلم يقع لها على خبر الى أن وصل الى مدينة اسكندرية وسأل عنها فوقع على خبرها عند نور الدين على المصرى فجرى له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها بالمنديل الذى لا يحسن صنعته غيرها وكان قد وصى التجار واتفق معهم على خلاصها بالحيلة فلما صارت عنده مكثت فى بكاء وعويل وحزن طويل فقال لها يا سيدتى مريم خلى عنك هذا الحزن والبكاء وقومى معى الى مدينة أبيك ومحل مملكتك ومنزل عزك ووطنك لتكونى بين خدمك وغلمانك

وحشمتك واتركي هذا الذل وهذه الغربة ويكفي ما قد حصل لي من التعب والسفر من أجلك وصرف الاموال فان لي في السفر والتعب وصرف الاموال نحو سنة ونصف وقد أمرني والدك أن اشتريك ولو بملء مركب ذهبا ثم ان ذلك الوزير صار يقبل قدميها ويخضع لها ولم يزل يكرر تقبيل يديها وقدميها وهي تزداد في الغضب عليه وهو مع ذلك منقاد اليها ويفعل ذلك كله أدبا معها واحتراما لشأنها وقد قالت له يا ملعون ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما في مرادك ثم قدم اليها الغلمان في تلك الساعة بغلة بسرج مزركش واركبوها عليها ورفعوا فوق رأسها سحابة من حرير بعمد من ذهب وفضة وصاروا لافرنج يمشون حولها حتى طلعوا بها من باب البحر وأنزلوها في قارب صغير وصاروا يقدفون بها الى أن أوصلوها الى المركب الكبيرة وأنزلوها فيها فعند ذلك نهض الوزير الاعور وقال لبحرية المركب ارفعوا الصاري فرفعوه من وقتهم ونشروا القلوع والاعلام وسافرت بهم تلك المركب هذا كله ومريم تنظر الى ناحية اسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكي في سرها بكاء شديدا وقد سكبت العبرات وأنشدت هذه الابيات

أيا منزل الاحباب هل لك عودة * الينا وما علي بما الله صانع
فسارت بنا سفن الفراق وأسرعت * وطرفي قريح بدمحته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدي * به يشتفي سقمي وتمحى المواجع
ألا يا الهي كن عليه خليفتي * فعندك حقا لا تضيع الودائع

ولم تزل مريم كلما تذكرته تبكي وتنوح فأقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل منهم كلاما بل شغلها داعي الوجد والغرام وزاد بها النحيب والهيام فاشتدت بها الحسرات وأنشدت هذه الابيات

لسان الهوى في مهجتي لك ناطق * يخبرني أني لك عاشق
ولي كبد جمر الهوى قد أذابها * وقلبي جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذي قد أذابني * جفني قريح والدموع سوابق

ولم تزل مريم على هذه الحالة لا يقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار مدة سفرها هذا ما كان من أمرها هي والوزير الاعور (وأما) ما كان من أمر نور الدين علي المصري فانه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار ولا يجد له عن فراقها اصطبار فتوجه الى القاعة التي كان مقيما بها هو ومريم فرآها في وجهه سوداء مظلمة ورأى العدة التي كانت تشتغل عليها الزنانير وثيابها التي كانت على جسدها فضمها الى صدره وبكى وأن لفراق حبيبته واشتكى وفاضت من جفنه

العبرات وأنشد هذه الابيات

ترى هل يعود الشمل بعد تشتتي * وبعد توالى حسرتي وتلفتي
فهيهات ماقدكان ليس براجع * فياهل ترى أحظى بوصل حبيبتي
وياهل ترى قد يجمع الله شملنا * وتذكر أحبابي عهود مودتي
ويحفظ ودي من بجهلي أضعته * ويرعي عهودي ثم سالف صحبتي
فما أنا الاميت بعد بعدهم * وهل ترضي الاحباب يوما منيتي
فيا أسفي ان كان يجدي تأسف * لقد ذبت وجدا من تزايد حسرتي
وضاع زمان كان فيه تواصلي * فياهل ترى دهري يجود بمنيتي
فيا قلب زد وجدا ويا عين اهملي * دموعا ولا تبقي الدموع بمقلتي
ويا بعد أحبابي وفقد تصبري * لقد قل انصاري وزادت بليتي
سألت اله العالمين يجود لي * بعود حبيبي والوصال كعادتي

ثم ان نور الدين بكى البكاء الشديد الذى ماعليه من مزيد ونظر الى زوايا القاعة وأنشد هذين البيتين

أرى آثارهم فأموت شوقا * وأسكب في مواطنهم دموعي
واسأل من قضى بالبعد عنهم * يمن علي يوما بالرجوع

ثم ان نور الدين نهض من وقته وساعته وقفل باب الدار وخرج يجري الى البحر وصار يتأمل في موضع المركب التي سافرت بمريم فبكي وصعد الزفرات وأنشد هذه الابيات

سلام عليكم ليس لي عنكم غنا * واني على الحالين في القرب والبعد
أحن اليكم كل وقت وساعة * واشتاقكم شوق العطاش على الورد
وعندكم سمعي ولبي وناظري * وتذكاركم عندي ألذ من الشهد
فيا أسفي لما استقلت ركابكم * وجدت بكم تلك السفينة عن قصد

ثم ان نور الدين ناح وبكى وأن وحن واشتكى ونادى يامريم يامريم هل كانت رؤيتي لك في المنام أم أضغاث أحلام ولما زاد به الحزن والحسرات أنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد عيني تراكم * واسمع من قرب الديار نداكم
وتجمعنا الدار التي آنست بنا * وأعطى مني قلبي وانتم مناكم
خذوا لعظامي أين سرتم محفة * وأين حللتم فادفنوني حداكم
فلو كان لي قلبان عشت بواحد * واترك قلبا مغرما في هواكم
ولو قيل لي ماذا على الله تشتهي * لقلت رضا الرحمن ثم رضاكم

فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكي ويقول يامريم واذا بشيخ قد طلع من مركب

وأقبل عليه فرآه يبكي وينوح وينشد هذين البيتين

يا مريم الحسن عودي ان لي مقلا * سحائب المزن تجري من سوا كبها
واستخبري عزلي دون الانام ترى * أجفان عيني غرقى في كواكبها

فقال له الشيخ ياولدي كانك تبكي على الجارية التي سافرت البارحة مع الافرنجي فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خر مغشيا عليه ساعة زمانية ثم أفاق وبكى البكاء الشديد الذي ما عليه مزيد وأنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد يرجى وصالها * ولذة أنسي قد يعود كمالها
فان بقلبي لوعة وصبابة * ويزعجني قيل الوشاة وقالها
أقضي نهاري باهتا متحيرا * وفي الليل أرجو أن يزور خيالها
فوالله لا أسلو عن العشق ساعة * وكيف ونفسي في الوشاة ملالها
منعمة الاطراف مهضومة الحشا * لها مقلة في القلب مني نبالها
يحاكي قضيب البان في الروض قدها * ويخجل ضوء الشمس حسنا جمالها
ولولا خاف الله جل جلاله * لقلت لذات الحسن جل جلالها

فلما نظر ذلك الشيخ الى على نور الدين ورأى جماله وقده واعتداله وفصاحة لسانه ولطف افتنانه حزن قلبه عليه ورق لحاله وكان ذلك الشيخ رئيس مركب مسافرة الى مدينة تلك الجارية وفيها زيادة عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر ياولدي ولا ترى الاخيرا ان شاء الله تعالى أوصلك اليها فقال له نور الدين متى السفر ياسيدي فقال الرئيس قد بقي لنا ثلاثة أيام ونسافر في خير وسلامة فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحا شديدا وشكر فضله واحسانه وبعد ذلك تذكر أيام الوصال واجتماع الشمل بجاريته ذات الحسن والجمال فبكى بكاء شديدا وأنشد هذه الابيات

فهل يجمع الرحمن لي ولكم شملا * وهل أبلغ المقصود ياسادتي أم لا
ترى يسمح صرف الدهر منكم بزورة * وأطبق أجفاني على ذاتكم بخلا
ولو كان وصلكم يباع اشتريته * بروحي ولكن أرى وصلكم أغلى

ثم أن نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق وأخذ منه جميع ما يحتاج اليه من الزاد وأدوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له ياولدي ما هذا الذي معك قال زوادتي وما احتاج اليه في السفر فضحك الرئيس من كلامه وقال له ياولدي هل أنت رائح تتفرج على عمود السواري ان بينك وبين مقصدك مسيرة شهرين اذا طاب الريح صفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيأ من الدراهم وطلع الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه في السفر على قدر كفايته وملاله بتية

ماء حلو ثم أقام نور الدين فى المركب ثلاثة أيام الى أن تجهز التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا فى المركب ثم حل الرئيس قلوعها وسار وا مدة أحد وخمسين يوما وبعد ذلك خرج على القرصان قطاع الطريق فنهبوا المركب وأسروا جميع من فيها وأتوا بهم الى مدينة أفرنجة وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جملتهم فأمر الملك بحبسهم وفى وقت نزولهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب الذى فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الاعور فلما وصل الغراب الى المدينة طلع الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمة فدقوا البشائر وزينوا المدينة بأحسن زينة وركب الملك فى جميع عسكره وأرباب دولته وتوجهوا الى البحر ليقابلوها لما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فعانقها وسلم عليها وقدم لها جوادا فركبته فلما وصلت الى القصر قابلتها أمها وعانقتها وسلمت عليها وسألتها عن حالها وهل هى بكر مثل ما كانت عندهم سابقا أو صارت امرأة ثيبا فقالت لها مريم يا أمى بعد أن يباع الانسان فى بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر ويصير محكوما عليه كيف تبقى بنت بكرا ان التاجر الذى اشترانى هددنى بالضرب وأكرهنى فأزال بكارتى وباعنى لآخر وآخر باعنى لآخر فلما سمعت أمها هذا الكلام صار الضياء فى وجهها كالظلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فصعب ذلك عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته فقالوا له أيها الملك انها تنجست من المسلمين وما يطهرها الا ضرب مائة رقبة من المسلمين فعند ذلك أمر الملك باحضار الاسارى الذين فى الحبس فاحضروهم جميعا بين يديه ومن جملتهم نور الدين وأمر الملك بضرب رقابهم فأول من ضرب رقبته رئيس المركب ثم ضربوا رقاب التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نور الدين فشرطوا ذيله وعصبوا عينيه وقدموه الى نطع الدم وأرادوا أن يضربوا رقبته واذا بامرأة عجوز أقبلت على الملك فى تلك الساعة وقالت له يا مولاى أنت كنت نذرت لكل كنيسة خمسة أسارى من المسلمين ان رد الله بنتك مريم لاجل أن يساعدونا فى خدمتها والآن قد وصلت اليك بنتك السيدة مريم فاوف بنذرك الذى نذرته فقال لها الملك يا أمى وحق المسيح والدين الصحيح لم يبق عندى من الاسارى غير هذا الاسير الذى يريدون قتله فخذيه معك يساعدك فى خدمة الكنيسة الى أن يأتى الينا أسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة أخر ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب هؤلاء الاسارى لاعطيتك كل ما تريدينه فشكرت العجوز صنيع الملك ودعت له بدوام العز والبقاء والنعم ثم تقدمت العجوز من وقتها وساعتها الى نور الدين وأخرجته من نطع الدم ونظرت اليه فرأته شابا لطيفا ظريفا رقيق البشرة ووجهه كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر فأخذته

ومضت به الى الكنيسة وقالت له ياولدى اقلع ثيابك التى عليك فانها لا تصلح الا لخدمة السلطان ثم ان العجوز جاءت لنور الدين بجبة من صوف أسود ومئزر من صوف أسود وسير عريض فالبسته تلك الجبة وذلك المئزر وشدت وسطه بالسير وأمرته أن يخدم الكنيسة فخدم الكنيسة مدة سبعة أيام فبينما هو كذلك واذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له يامسلم خذ ثيابك الحرير والبسها وخذ هذه العشرة دراهم واخرج فى هذه الساعة لتتفرج فى هذا اليوم ولا تقف هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك فقال لها نور الدين ياأمى أى شئ الخبر فقالت له العجوز اعلم ياولدى أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة فى هذا الوقت لاجل أن تزورها وتتبرك بها وتقرب لها قربانا حلاوة السلامة بسبب خلاصها من المسلمين وتوفى لها النذور التى نذرتها ان نجاها المسيح ومعها أربعمائة بنت ما واحدة منهن الا كاملة فى الحسن والجمال ومن جملتهن بنت الوزير وبنات الامراء وأرباب الدولة وفى هذه الساعة يحضرن وربما يقع نظرهن عليك فى هذه الكنيسة فيقتلنك فعند ذلك أخذ نور الدين من العجوز العشرة دراهم بعد ان لبس ثيابه وخرج الى السوق وصار يتفرج فى شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها ثم رجع الى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت الملك قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربعمائة بنت نهد أبكار كانهن الاقمار ومن جملتهن بنت الوزير الاعور وبنات الامراء وأرباب الدولة وهى تمشى بينهن كانها القمر بين النجوم فلما رآها نور الدين لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال يامريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادى يامريم هجمن عليه وجردن بيض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله فى تلك الساعة فالتفتت اليه مريم وتأملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات اتركن هذا الشاب فانه مجنون بلا شك لان علامة الجنون لائحة على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحملق عينيه وأشاح بيديه وعوج رجليه وأخرج الزبد من فيه وشدقيه فقالت السيدة مريم أما قلت لكن ان هذا مجنون احضرنه عندى وابعدن عنه حتى اسمع ما يقول فانى اعرف كلام العرب وانظر حاله وهل داء جنونه يقبل المداواة ام لا فعند ذلك حملته البنات وجئن به بين يديها ثم أبعدن عنه فقالت له هل جئت الى هنا من أجلى وخاطرت بنفسك وعملت نفسك مجنونا فقال لها نور الدين ياسيدتى أما سمعت قول الشاعر

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * مالذة العيش الا للمجانين
هاتوا جنونى وهاتوا من جننت به * فان وفا بجنونى لا تلومونى

فقالت له مريم والله يانور الدين انك الجانى على نفسك فانى حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولى وتبعت هوى نفسك وأنا ما أخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا فى المنام وانما هو من باب المشاهدة والعيان لانى رأيت الوزير الاعور فعرفت أنه ما دخل فى هذه البلدة الا فى طلبى فقال لها نور الدين ياسيدتى مريم نعوذ بالله من زلة العاقل ثم تزايد بنور الدين الحال فانشد هذا المقال

هبوا جناية من زلت به القدم * قد يشمل العبد من ساداته كرم
حسب المسىء بذنب من جنايته * فرط الندامة اذ لاينفع الندم
فعلت ما يقتضى التأديب معترفا * فاين ما يقتضيه العفو والكرم

ولم يزل نور الدين هو والملكة مريم الزنارية فى عتاب يطول شرحه وكل منهما يحكى لصاحبه ما جرى له ويتناشدان الاشعار ودموعهما تجرى على خدودهما شبه الانهار ويتشكيان لبعضهما شدة الهوى وأليم الوجد والجوى الى أن لم يبق لاحدهما قوة على الكلام وقد ولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة مريم حلة خضراء مزركشة بالذهب الاحمر مرصعة بالدر والجوهر فزاد بها حسنها وظرف معانيها وقد أجاد من قال فيها

تبدت كبدر التم فى الحلل الخضر * مفككة الازرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التى * كويت قلوب العاشقين على الجمر
أنا الفضة البيضاء والذهب الذى * يفك به المأسور من شدة الاسر
فقلت لها ان الصدود أذابنى * فقالت أتشكو لى وقلبى من صخر
فقلت لها ان كان قلبك صخرة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما جن الليل اقبلت الملكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقلن لها قد أغلقناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن الى مكان يقال له مكان السيدة مريم العذراء أم النور لان النصارى يزعمون ان روحانيتها وسرها فى ذلك المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن فى الكنيسة كلها ولما فرغن من زيارتها التفتت السيدة مريم اليهن وقالت لهن انى أريد أن أدخل وحدى فى هذه الكنيسة وأتبرك بها فانه حصل لى اشتياق اليها بسبب طول غيبتى فى بلاد المسلمين وأما أنتن فحيث فرغتن من الزيارة فنمن حيث شئتن فقلن لها حبا وكرامة افعلى أنت ما تريدينه ثم انهن تفرقن عنها فى الكنيسة ونمن فعند ذلك استغفلتهن مريم وقامت تفتش على

نور الدين فرآته فى ناحيـة جالسا على مقاعد الجسر وهو فى انتظارها فلما اقبلت عليه قام لها على قدميـه وقبل يديها فجلست وأجلسته الى جانبها ثم نزعت ما كان عليها من الحلى والحلل وضمت نور الدين الى صدرها وجعلته فى حضنها ولم تزل هى واياه فى تقبيل وعناق ونغمات خاق باق وهما يقولان ما أقصر ليـل التـلاق وما أطول يوم الفـراق وينشدان قول الشاعر

يا ليلة الوصـل و بكر الدهر * لانت غـرة الليالى الغـر
جئتنى بالصبح وقت العصر * هل كنت كحلا فى عيون الفجر
أو كنت نوما فى عيون الرمد

ليـلة الوصال ما أطولها * آخرها مواصـل أولها
كحلقـة مفرغـة ما ان لها * من طرف والحشر أيضا قبلها
فالصب بعد البعث ميت الصد

فبينما هما فى هـذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة واذا بغـلام من الغلمان النفيسة يضرب الناقوس فوق سطح الـكنيسة ليقيم من عبادتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر

رأيتـه يضرب النـاقوس قلت له * من علـم الظــبى ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس أى الضرب يؤلمك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيسي

فلما سمعت مريم ضرب الناقوس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحليها فشق ذلك على نور الدين وتكدر قلبه الحزين وسكب العبرات وأنشد هذه الابيات

لازال الثم ورد خـد غض * وأعد ذاك مبالغا فى العض
حـتى اذا طبنا ونام رقيبنـا * وعيونه مالت لنحـو الغمض
ضربت نواقيس تشبه أهلها * بمؤذن يدعو صـلاة الفرض
قامت على عجل للبس ثيابها * من خوف نجم رقيبنا المنقض
وتقول ياسؤلى و يا كل المنى * جاء الصباح بوجهه المبيض
أقسمت لو أعطيت ملك ولاية * و بقيت سلطانا شديد القبض
لهدمت أركان الكنائس كلها * وقتلت كل مقسس فى الارض

ثم ان السـيدة مريم ضمت نور الدين الى صدرها وقبلت خده وقالت له يا نور الدين كم يوم لك فى هذه المدينة فقال سبعة أيام فقالت له هل سرت فى هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارزها وأبوابها التى من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل تعرف طريق صندوق النذر الذى فى الـكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف ذلك كله اذا كانت الليلة

القابلة ومضى ثلث الليل الاول فاذهب فى تلك الساعة الى صندوق النذر وخذ منه ما تريده وتشتهيه وافتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة التى توصل الى البحر فانك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية فى رأسك الرئيس يمد يده اليك فناوله يدك فانه يطلعك فى السفينة فاقعد عنده حتى أجىء اليك والحذر ثم الحذر من أن يلحقك النوم فى تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت من عنده فى ذلك الوقت والحين ونبهت جواريها وسائر البنات من نومهن وأخذتهن وأتت الى باب الكنيسة ودقته ففتحت العجوز الباب فلما طلعت منه رأت الخدم والحشم والبطارقة وقوفا فقدموا لها بغلة فركبتها وأرخوا عليها ناموسية من الحرير وأخذت البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بها الجاويشية وبايديهم السيوف مسلولة وتوجهوا بها الى أن وصلوا الى قصر أبيها هذا ما كان من أمرها ﴿وأما﴾ ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل مختفيا وراء الستارة التى كان مستترا خلفها هو ومريم الى أن طلعت الشمس ودخل الناس فى الكنيسة وكثروا فيها فاختلط بالناس وجاء الى تلك العجوز قيمة الكنيسة فقالت له أين كنت راقدا فى هذه الليلة قال فى محل داخل المدينة كما أمرتينى فقالت له العجوز نعم ما فعلت ولو كنت بت الليلة فى الكنيسة لكانوا قتلوك أقبح قتلة فقال لها نور الدين الحمد لله الذى نجانى من شر هذه الليلة ولم يزل نور الدين يقضى شغله فى الكنيسة الى أن مضى النهار وأقبل الليل بدياجى الاعتكار فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر ثم صبر الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة التى توصل الى البحر وهو يطلب الستر من الله ولم يزل يمشى الى أن وصل الى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وذهب الى البحر فوجد السفينة راسية على شاطئ البحر بجوار الباب ووجد الرئيس شيخا كبيرا ظريفا الا ان لحيته طويلة وهو واقف فى وسطها على رجليه والعشرة رجال واقفون قدامه فناوله نور الدين يده ثم أمرته مريم فاخذه من يده وجذبه من البحر فصار فى وسط السفينة فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم اقلعوا مرساة السفينة من البر وعوموا بنا قبل ان يطلع النهار فقال واحد من العشرة البحرية ياسيدى الرئيس كيف نعوم والملك أخبرنا أنه فى غد يركب السفينة فى هذا البحر ليطلع على ما فيه لانه خائف على ابنته مريم من سراق المسلمين فصاح عليهم الرئيس وقال ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم أنكم تخالفوننى وتردون كلامى ثم ان الرئيس سل سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على

عنقه فخرج السيف يلمع منه فقال له واحد وأى ذنب عمل صاحبنا حتى تضرب رقبته فمد يده الى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم ولم يزل ذلك الرئيس يضرب اعناق البحرية واحدا بعد واحد حتى قتل العشرة ورماهم على شاطئ البحر ثم التفت الى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته وقال له انزل الى المراسى فخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب فى البر وقلع المراسى ثم طلع فى السفينة أسرع من البرق وصار الرئيس يقول له افعل كذا وكذا ودور كذا وكذا وانظر النجوم ونور الدين يفعل جميع ما يأمره به الرئيس وقلبه خائف مرعوب ثم رفع شراع المركب وسارت بهما فى البحر العجاج المتلاطم بالامواج وقد طاب لهما الريح كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق فى بحر الافكار ولم يزل مستغرقا فى الفكر ولم يعلم بما هو مخبأ له فى الغيب وكلما نظر الى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم الجهة التى هو متوجه اليها بل صار مشغولا فى فكر ووسواس الى أن اتضح النهار وطلعت الشمس فعند ذلك نظر نور الدين الى الرئيس فرآه قد أخذ لحيته الطويلة بيده وجذبها فطلعت من موضعها فى يده وتأملها نور الدين فوجدها لحية ملصقة زورا ثم تأمل نور الدين فى ذات الرئيس ودقق النظر فيها فاذا هى السيدة مريم معشوقته وكانت قد تحيلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلحيته وأخذت جلد وجهه وركبته على وجهها فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طار عقله من الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها مرحبا بك يا منيتى وسؤلى وغاية مطلبى ثم ان نور الدين هزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الامل والارب فردد صوته باطيب النغمات وأنشد هذه الابيات

قل لقوم هم لعشق جهلوا * فى حبيب ما اليه وصلوا
عن غرامى بين قومى فاسألوا * قد حلا نظمى ورق الغزل
فى هوى قوم بقلبى نزلوا

ذكرهم عندى يزيل السقما * عن فؤادى ويزيح الالما
زاد شوقى وهيامى عندما * اصبح القلب كئيبا مغرما
وبه فى الناس سار المثل

أنا لا أقبل فيهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة
لكن الحب رمانى حسرة * أشعلت منه بقلبى جمرة
حرها فى كبدى يشتعل

من عجيب قد أباحوا سقمى * مع سهادى طول ليل مظلم

كيف راموا بالتجافى عدمى * واستحلوا فى الهوى سفك دمى
وهم فى جورهم قد عدلوا
ياترى من الذى أوصاكم * بالتجافى عن فتى يهواكم
وإعسرى والذى أنشاكم * نقل العذال قولا عنكم
كذبوا والله فيما نقلوا
لا ازاح الله عنى عللا * لا ولا أشفى لقلبى غللا
يوم أشكو من هواكم مللا * أنا لا أرضى سواكم بدلا
عذبوا قلبى وان شئتم صلوا
لى فؤاد لم يحل عن حبكم * لو يعانى حسرة من صدكم
سخط هذا والرضا من عندكم * ما تشاؤا فافعلوا فى عبدكم
هو بالروح لكم لا يبخل

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له من هذه حالته ينبغى أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الانذال وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب فى البحر المالح وتعرف الاهوية كلها واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله ياسيدتى لو أطلت على هذا الامر لمت من شدة الخوف والفزع خصوصا مع نار الوجد والاشتياق وأليم الفراق فضحكت من كلامه وقامت من وقتها وساعتها وأخرجت شيأ من المأكول والمشروب فأكلا وشربا وتلذذا وطربا و بعد ذلك أخرجت من اليواقيت والجواهر وأصناف المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة مما خف حمله وغلا ثمنه من الذى جاءت به من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح كل ذلك والريح معتدل والمركب سائرة ولم يزالا سائرين حتى أشرفا على مدينة اسكندرية وشاهدوا أعلامها القوية فلما وصلا الى المينا طلع نور الدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها هناك وأخذ معه شيأ من الذخائر التى جاءت بها مريم وقال لها ياسيدتى اقعدى فى السفينة حتى أطلع بك الى اسكندرية مثل ما أحب وأشتهى فقالت له ولكن ينبغى أن يكون بسرعة لان التراخى فى الامور يورث الندامة فقعدت مريم فى السفينة وتوجه نور الدين الى بيت العطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقابا وازارا وما تحتاج اليه كعادة نساء اسكندرية ولم يعلم بما لم يكن له فى حساب من تصرفات الدهر أبى العجب العجاب هذا ما كان من أمر نور

الدين ومريم الزنارية (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افرنجة فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها فسأل عنها من جواريها وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت الى الكنيسة وبعد ذلك لم نعرف لها خبرا فبينما الملك يتحدث مع الجوارى والخدم فى تلك الساعة واذا بصرختين عظيمتين تحت القصر قد دوى لهما المكان فقال الملك ما الخبر فقالوا له أيها الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا باب الخوخة الذى فى الكنيسة من جهة البحر مفتوحا والاسير الذى كان يخدم الكنيسة قد فقد فقال الملك ان كانت سفينتى فى البحر قد فقدت فبنتى مريم فيها بلا شك ولا ريب ثم ان الملك دعا رئيس المينا وقال له وحق المسيح والدين الصحيح ان لم تلحق سفينتى فى هذه الساعة بعسكر وتأتينى بمن فيها الا قتلتك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب العجوز من الكنيسة وقال لها ما كنت تسمعين من الاسير الذى كان عندك فى شأن بلاده من أى البلاد هو فقالت له كان يقول أنا من مدينة اسكندرية فلما سمع الرئيس كلام العجوز رجع من وقته وساعته الى المينا وصاح على البحرية وقال لهم تجهزوا وحلوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم يزالوا مسافرين ليلا ونهارا حتى أشرفوا على مدينة اسكندرية فى الساعة التى طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزير الاعور الاعرج الذى كان اشتراها من نور الدين فرأوا السفينة مربوطة فعرفوها فربطوا مركبهم بعيدا عنها وأتوا اليها فى مركب صغيرة تعوم على ذراعين من الماء وفى تلك المركب مائة مقاتل ومعهم الوزير الاعور والاعرج لانه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا ولصا محتالا ولم يزالوا سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فهجموا عليها وحملوا حملة واحدة فلم يجدوا فيها أحدا الا السيدة مريم فأخذوها هى والسفينة التى هى فيها بعد أن طلعوا على الشاطئ وأخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مركبهم وقد فازوا ببغيتهم ومطلبهم من غير قتال ونزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد طاب لهم الريح ولم يزالوا مسافرين على حماية الى أن وصلوا الى مدينة افرنجة وطلعوا بالسيدة مريم الى أبيها وهو فى تخت مملكته فلما نظر اليها أبوها قال لها ويلك يا خائنة كيف تركت دين الآباء والاجداد وحصن المسيح الذى عليه الاعتماد واتبعت دين الاسلام الذى قام بالسيف على رغم الصليب والاصنام فقالت له مريم أنا مالى ذنب لانى خرجت فى الليل الى الكنيسة لازور السيدة مريم وأتبرك بها فبينما أنا فى

غفلة واذا بسراق المسلمين قد هجموا على وسدوا فى وشدوا وثاقى ووضعونى فى السفينة وسافروا بى الى بلادهم فخادعتهم وتكلمت معهم فى دينهم الى أن فكوا وثاقى وما صدقت أن رجالك أدركونى وخلصونى وأنا وحق المسيح والدين الصحيح قد فرحت بفكاكى من أيديهم غاية الفرح واتسع صدرى لذلك وانشرح حيث خلصت من أسرهم فقال لها أبوها كذبت يا فاجرة يا عاهرة وحق محكم الانجيل ومنزل التحريم والتحليل لابد لى من أن أقتلك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة أما كفاك الذى فعلتيه فى الاول ودخل علينا محالك حتى رجعت اليه ببهتانك واحتيالك ثم ان الملك أمر بقتلها وصلبها على باب القصر فدخل عليه الوزير الاعور فى تلك الساعة وكان مغرما بحبها قديما وقال له يا مولانا الملك لا تقتلها وزوجنى بها وأنا أحرص عليها غاية الحرص وما أدخل عليها حتى أبنى لها قصرا من الحجر الجلمود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود عليه واذا فرغت من بنيانه ذبحت على بابه أربعين من المسلمين وأجعلهم قربانا للمسيح عنى وعنها فانعم عليه الملك بزواجها وأذن للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يكتبوا عليه الـه فكتبوا عليها للوزير الاعور وأذن أن يشرعوا لها فى بنيان قصر مشيد يليق بها فشرعت العمال فى العمل * هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان من أمر نور الدين والرجل العطار فان نور الدين لما توجه الى العطار استعار من زوجته ازارا ونقابا كنساء اسكندرية ورجع بهما الى البحر وقصد محل السفينة التى فيها مريم فوجد الجو قفرا والمزار بعيدا فصار قلبه حزينا فبكى بدمع متواتر وأنشد قول الشاعر

سرى طيف سعدى طارقا فاستفزنى * سحيرا وصحبى فى الفلاة رقود

فلما انتبهنا للخيال الذى سرى * أرى الجو قفرا والمزار بعيد

فمشى نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمينا وشمالا فرأى ناسا مجتمعين على الشاطئ وهم يقولون يا مسلمون ما بقى لمدينة اسكندرية حرمة حتى صار الافرنج يدخلونها ويختطفون من فيها ويعودون الى بلادهم على غاية الامان ولا يخرج وراءهم أحد من المسلمين ولا من العساكر المغازين فقال لهم نور الدين ما الخبر فقالوا له ان مركبا من مراكب الافرنج فيها عساكر قد هجموا فى هذه الساعة على المينا وأخذوا سفينة كانت راسية هنا بمن فيها وراحوا على حماية الى بلادهم فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا عليه فلما أفاق سألوه عن قصته فاخبرهم بخبره من الاول الى الآخر فلما فهموا خبره صار كل منهم يشتمه ويسبه ويقول له لاى شئ فعلت هذا ما تخرجها الا بازار

ونقاب وصار كل واحد من الناس يقول له كلاما مؤلما ومنهم من يقول خلوه في حاله
يكفيه ما جرى له وصار كل واحد يوجعه بالكلام ويرميه بسهام الملام حتى وقع
مغشيا عليه فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة واذا بصاحبه العطار قد
أقبل فرأى الناس مجتمعين فمشى جهتهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدا بينهم
وهو مغشي عليه فقعد عند رأسه ونبهه فلما أفاق قال له ياولدي ما هذا الحال الذي
أنت فيه فقال له ياعم ان جاريتي التي ذهبت مني قد جئت بها من مدينة أبيها في مركب
وقاسيت ما قاسيت في المجيء بها فلما وصلت بها الى هذه المدينة ربطت السفينة في البر
وتركت الجارية فيها وذهبت الى منزلك وأخذت من زوجتك مصالح للجارية لاخرجها
بها من السفينة الى المدينة فجاء الافرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها وراحوا على
جانبه حتى وصلوا الى مراكبهم فلما سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تأسف على
نور الدين أسفا عظيما وحزن عليه حزنا جسيما وقال له ياولدي لاى شئ ما أخرجتها من
السفينة الى المدينة من غير ازار ونقاب ولكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام قم
ياولدي واطلع معي الى المدينة لعل الله يرزقك بجارية أحسن منها فتتسلى بها عنها واحمد
الله على عدم خسارتك فيها شيأ بل حصل لك الربح فيها واعلم ياولدي أن الاتصال
والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله ياعم اني ما أقدر أن أسلاها أبدا
ولا أترك طلبها ولو سقيت من أجلها كأس الردى فقال له العطار ياولدي وأي شئ
في ضميرك تريد أن تفعله فقال له نويت أن أرجع الى بلادهم وأدخل مدينة
افرنجة وأخاطر بنفسي فاما لها واما عليها فقال له ياولدي ان في الامثال السائرة ما كل
مرة تسلم الجرة وان كانوا ما فعلوا بك في المرة الاولى شيأ ربما يقتلونك هذه المرة لاسيما
وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين ياعم دعني أسافر وأقتل من أجلها صبرا وكان
بمصادفة القدر مركب راسية في المينا مجهزة للسفر وركابها قد قضت جميع أشغالها
وفي تلك الساعة قلعوا أوتادها فنزل فيها نور الدين وسافرت تلك المركب مدة أيام وقد
طاب لركابها الوقت والريح فبينما هم سائرون واذا بمركب من مراكب الافرنج
دائرة في البحر العجاج لا يرون مركبا الا ويأخذونها خوفا على بنت الملك من سراق
المسلمين واذا أخذوا مركبا يوصلون جميع من فيها الى ملك افرنجة فيذبحهم ويوفي بهم
نذره الذي كان نذره من أجل ابنته فرأوا المركب التي فيها نور الدين فأخذوها وأسروا
كل من كان فيها وأتوا بهم الى الملك والد السيدة مريم فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم
مائة رجل من المسلمين فامر بذبحهم في الوقت والساعة ومن جملتهم نور الدين فذبحوهم

كلهم ولم يبق منهم الا نور الدين وكان الجلاد أخره شفقة عليه لصغر سنه ورشاقة قده فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة فقال له أما أنت نور الدين الذى كنت عندنا فى المرة الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمى نور الدين وانما اسمى ابراهيم فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذى وهبتك للعجوز القيمة على الكنيسة لتساعدها فى خدمة الكنيسة فقال له نور الدين يا مولاى أنا اسمى ابراهيم فقال له الملك ان العجوز قيمة الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو غيره فبينما هم فى الكلام واذا بالوزير الاعور الذى تزوج مريم قد دخل فى تلك الساعه وقبل الارض بين يدى الملك وقال له أيها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بنيانه وأنت تعرف انى نذرت للمسيح اذا فرغت من بنائه أن أذبح على بابه أربعين من المسلمين وقد اتيت لآخذ من عندك اربعين مسلما فاذبحهم واوفى بهم نذر المسيح ويكونون فى ذمتى على سبيل العوض ومتى جاءنى اسارى اعطيك بدلهم فقال الملك وحق المسيح ما بقى عندى غير هذا الاسير واشار الى نور الدين وقال له خذه واذبحه فى هذه الساعة حتى ارسل اليك البقية اذا جاءنى اسارى من المسلمين فعند ذلك قام الوزير الاعور وأخذ نور الدين ومضى به الى القصر ليذبحه على عتبة بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير قد بقى علينا من الدهان شغل يومين فاصبر علينا وأخر ذبح هذا الاسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن يأتى اليك بقية الاربعين فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفى بنذرك فى يوم واحد فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين فاخذوه مقيدا جائعا عطشانا يتحسر على نفسه وقد نظر الموت بعينه واتفق بالامر المقدر والقضاء المبرم انه كان للملك حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والاخر لاحق وكانت الملوك الاكاسرة بحسرة تحصيل واحد منهما وكان أحدهما أشهب نقيا والآخر أدهم كالليل الحالك وكانت ملوك الجزائر جميعا يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نعطيه جميع ما يطلبه من الذهب الاحمر والدر والجوهر فلم يقدر أحد على سرقة واحد من هذين الحصانين فحصل لاحدهما مرض فى عينيه فاحضر الملك جميع البياطرة لدوائه فعجزوا عنه كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذى تزوج بنته مريم فرآه مهموما من قبل ذلك الحصان فاراد أن يزيل همه فقال أيها الملك اعطنى هذا الحصان وأنا أداويه لك فاعطاه له فنقله الى الاصطبل الذى فيه نور الدين محبوس فلما فارق هذا الحصان أخاه صاح صيحة عظيمه وصهل حتى أزعج الناس من الصياح فعرف أنه ما حصل منه هذا الصياح الا لفراقه لاخيه فذهب وأعلم الملك بذلك فلما تحقق الملك كلامه قال اذا كان ذلك حيوانا ولم يصبر على فراق أخيه فكيف بذوى العقول ثم أمر

الغلمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم قولوا للوزير ان الملك يقول لك ان الحصانين انعام منه عليك لاجل خاطر ابنته مريم فبينما نور الدين نائما في الاصطبل وهو مقيد مكبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على عيني أحدهما غشاوة وكان عنده بعض معرفة باحوال الخيل وممارسة دوائها فقال في نفسه هذا والله وقت فرصتي فأقوم وأكذب على الوزير وأقول له أداوي هذا الحصان وأعمل له شيأ يتلف عينيه فيقتلني وأستريح من هذه الحياة الذميمة ثم ان نور الدين انتظر الوزير الى أن دخل الاصطبل ينظر الحصانين فلما دخل قال له نور الدين يامولاي أي شيء يكون لي عليك اذا أنا داويت لك هذا الحصان واعمل له شيأ يطيب عينيه فقال له الوزير وحياة رأسي ان داويته أعتقك من هذا الذبح وأخليك تتمنى علي فقال يامولاي مر بفك يدي فأمر الوزير باطلاقه فنهض نور الدين وأخذ زجاجا بكرا وسحقه وأخذ جيرا بلا طفي وخلطه بماء البصل ثم وضع الجميع في عيني الحصان وربطهما وقال في نفسه الآن تغور عيناه فيقتلني واستريح من هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس الهم وتضرع الى الله تعالى وقال يارب في علمك ما يغني عن السؤال فلما أصبح الصباح وأشرقت الشمس على الروابي والبطاح جاء الوزير الى الاصطبل وأزال الرباط عن عيني الحصان ونظر اليهما فرآهما أحسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتاح فقال له الوزير يامسلم ما رأيت في الدنيا مثلك في حسن معرفتك وحق المسيح والدين الصحيح انك أعجبتني غاية الاعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل بيطار في بلادنا حتى تحير فيه ذوو الالباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه حلة سنية وجعله ناظرا على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه في طبقة على الاصطبل وكان في القصر الجديد الذي بناه للسيدة مريم شباك مطل على بيت الوزير وعلى الطبقة التي فيها نور الدين فقعد نور الدين مدة أيام أكل ويشرب ويتلذذ ويطرب ويأمر وينهى على خدمة الخيل وكل من غاب منهم ولم يعلق على الخيل المربوطة على الطوالة التي فيها خدمته يرميه ويضربه ضربا شديدا ويضع في رجليه القيد الحديد وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح ولم يدر ما يؤول أمره اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى الحصانين ويمسحهما بيده لما يعلم من عزتهما عند الوزير ومحبته لهما وكان لذلك الوزير بنت بكر في غاية الجمال كانها غزال شارد أو غصن مائد فاتفق انها كانت جالسة ذات يوم من الايام في الشباك المطل على بيت الوزير وعلى المكان الذي فيه نور الدين اذ سمعت نور الدين يغني ويسلي نفسه على المشقات بانشاد هذه الابيات

ياعاذلا أصبح فى ذاته * منعما يزهو بلذاته
لو عضك الدهر بآفاته * اقلت من ذوق مراراته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
لكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوره
فلا تلم من حار فى أمره * وقاسى من فرط صباباته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
كن عاذرا العشاق فى حالهم * ولا تكن عونا للعذالهم
اياك أن تشمت فى حبهم * مجرعا من مر لوعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى الفؤاد
لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعا لى دعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
لم يدر ما العشق وماذله * الا الذى اسقمه طوله
وضاع منه فى الهوى عقله * وشربه من مر جرعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
كم عين صب فى الدجى أسهرا * وأحرم الجفن لذيذا كرى
وكم أسال دمعه أنهرا * تجرى على الخد بلوعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
كم فى الورى من مغرم مستهام * سهران من وجد بعيد المنام
ألبسه ثوب الضنا والسقام * من قد نفى عنه ممد ماته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
كم قل صبرى وبرى أعظمى * وسال دمعى منه كالعندم
من أهيف قد زاد فيه سقمى * قد كان حلوا فى مذاقاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
مسكين من فى الناس مثلى عشق * وبات فى حنح الليالى أرق
ان عام فى بحر النجا فى غرق * يشكو من العشق وزفراته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
من ذا الذى بالعشق لم يبتل * ومن نجا من كيده لا سهل

ومن يعش منه بعيش خلى * وأين من فاز براحاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
يارب دبر من به قد بلى * وأكمله أنعم أنت من كافل
وارزقه منك بالثبات الجلى * والطف به فى كل آفاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته

فلما فرغ نور الدين من كلامه وخلص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير فى نفسها وحق المسيح والدين الصحيح ان هذا لمسلم شاب مليح ولكنه لاشك أنه عاشق مفارق فياترى معشوق هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ماعنده أم لا فان كان معشوقه مليحا مثله يحق له اسالة العبرات وشكوى الصبابات وان كان غير مليح فقد ضيع عمره فى الحسرات وحرم طعم اللذات وكانت مريم الزنارية زوجة الوزير محبوبة نور الدين قد نقلت الى القصر الجديد أمس ذلك اليوم وعلمت منها بنت الوزير ضيق الصدر فعزمت على أن تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا الغلام وماسمعت منه من النظام فما استتمت الفكر فى هذا الكلام حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها لاجل أن تؤانسها بالحديث فذهبت اليها فرأت صدرها ضيقا ودموعها جاريه على خدها وهى تبكى البكاء الشديد الذى ماعليه من مزيد وتكفكف العبرات وتنشد هذه الابيات

مضى عمرى وعمر الوجد باقى * وصدرى ضاق من فرط اشتياق
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عود أيام التلاقى
لينتظم الوصال على اتساق
أقلوا اللوم عن مسلوب قلب * نحيل الجسم من شوق وكرب
ولا ترموا حشاه بسهم عتب * فما فى الكون أشقى من محب
فر العشق حلو فى المذاق

فقالت بنت الوزير للسيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتتة الفكر فلما سمعت السيدة مريم كلام بنت الوزير تذكرت مافات من عظيم اللذات فانشدت هذه الابيات

ساصبر توطينا على هجر صاحبي * وأرسل در الدمع نثرا على نثر
عسى فرج يأتى به الله انه * طوى كل يسر تحت أجنحة العسر

فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة لا تضيقى صدرا وقومى معى فى هذه الساعة الى شباك القصر فان عندنا فى الاصطبل شابا مليحا رشيق القوام حلو الكلام كانه عاشق مفارق

فقالت لها السيدة مريم باى علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة عرفت ذلك بانشاده القصائد والاشعار آناء الليل وأطراف النهار فقالت السيدة مريم فى نفسها ان كان قول بنت الوزير بيقين فهذه صفات الكئيب المسكين على نور الدين فيا هل ترى هو ذلك الشاب الذى ذكرته بنت الوزير ثم ان السيدة مريم زادبها العشق والهيام والوجد والغرام فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير الى الشباك ونظرت منه فرأته محبوبها وسيدها نور الدين ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبته اياها ومن نار الوجد وألم الفراق والوله والاشتياق قد زاد به النحول وهو ينشد ويقول

القلب مملوك وعيني حاريه * ليس لهـا سحابة مجاريه
بين بكائى وسهادي والجوى * والنوح والحزن على أحبابيه
واحرقتى واحسرتى والوعتى * تكاملت أعـدادها ثمانيه
وتابعتها خمسـة فى خمسة * ألا قفوا واستمعوا مقاليـه
ذكر وفكر وزفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليـه
محنـة وغربة وصبوة * ولهفة وفرحة ترانيـه
قل اصطبارى واحتمالى للهوى * لما نأى صبرى دنت آجاليـه
قد زاد فى قلبي تباريح الجوى * ياسائلا عن نار قلبي ماهيـه
مالدمعى موقدا فى مهجتى * فنار قلبي لاتزل حاميـه
أصبحت فى طوفان دمعى غارقا * ومن لظى هذا الهوى فى هاويه

فلما رأت السيدة مريم سيدها على نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نظامه تحققت أنه هو ولكن كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسيح والدين الصحيح ما كنت أحسب أن عندك خبرا بضيق صدرى ثم نهضت لوقتها وساعتها وقامت من الشباك ورجعت الى مكانها ومضت بنت الوزير الى حالها ثم صبرت السيدة مريم برهة من الزمان ورجعت الى الشباك وجلست فيه وصارت تنظر الى سيدها نور الدين وتتأمل فى لطفه ورقة معانيه فرأته كالبدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر لكنه دائم الحسرات جارى العبرات وقد تذكر مافات فانشد هذه الابيات

أملت وصل أحبتى مانلته * أبدا ومر العيش قد واصلتـه
دمعى يحاكى البحر فى جريانه * واذا رأيت عواذلى كفكفته
آه على داع دعى بفـراقنا * لونلت منـه لسانه لقطعته
لا عتب للايام فى أفعالهـا * مزجت بصرف المر ماجرعته

فلمن أسير الى سواكم قاصدا * والقلب فى ساحاتكم خلفته
من منصفى من ظالم متحكم * يزداد ظلما كلما احكمته
ملكته روحى ليحفظ ملكه * فأضاعنى وأضع ما ملكته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أعطى وصولا بالذى أنفقته
ياأيها الرشا المليح بمهجتى * يكفى من الهجران ما قد ذقته
أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبرى فرقته
أحللته قلبى فحل به البلا * انى لراض بالذى أحللته
وجرت دموعى مثل بحر زاخر * لو كنت أعرف مسلكا اسلكته
وخشيت خوفا أن أموت بحسرة * ويفوت منى كل ما أملته

فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفارق انشاد هذه الاشعار حصل عندها من كلامه اقشعرار وفاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين

بليت بمن أهوى فلما لقيته * ذهلت فلم أملك لسانا ولا طرفا
وكنت معدا للعتاب دفاترا * فلما اجتمعنا ما قيت ولا حرفا

فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه نغمة سيدتى مريم الزنارية بلا شك ولا ريب ولا رجم غيب فيا ترى هل ظنى صحيح وانها هى أو غيرها ثم ان نور الدين زادت به الحسرات فتأوه وأنشد هذه الابيات

لما آنى لائمى فى الهوى * صادفت حبى فى مكان حبيب
ولم أفه بالعتب عند اللقا * ورب عتب فيه برء الكئيب
فقال ما هذا السكوت الذى * صدك عن هذا الجواب المصيب
فقلت يامن تدعى جاهلا * بحال أهل العشق كالمستريب
علامة العاشق فى عشقه * سكوته عند لقاء الحبيب

فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواة وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورحمته وبركاته وأخبرك أن الجارية مريم تسلم عليك * وهى كثيرة الشوق اليك * وهذه مراسلتها لك * فساعة وقوع هذه الورقة بين يديك * انهض من وقتك وساعتك واهتم بما تريده منك غاية الاهتمام والحذر كل الحذر من المخالفة ومن أن تنام فاذا مضى ثلث الليل الاول فان تلك الساعة من أسعد الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الا شد الحصانين وتخرج بهما خارج المدينة وكل من قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهما فاذا قلت ذلك لا يمنعك أحد فان أهل هذه المدينة واثقون بقفل جميع الابواب وانتظرنى حتى أجىء ليلا ثم ان السيدة

مريم لفت الورقة في منديل حرير ورمتها الى نور الدين من الشباك فأخذها وقرأها وفهم ما فيها وعرف انه بخط السيدة مريم فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل له معها من طيب الوصال فأسال دمع العينين وأنشد هذين البيتين

أتاني كتاب منكم جنح ليلة * فهيجني شوقا اليكم وأبراني
وذكرني أنسا مضى بوصالكم * فسبحان رب بالتفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما جن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل ثلثه الاول ثم قام من وقته وساعته الى الحصانين ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج وخرج من باب الاصطبل وقفل الباب وسار بهما الى باب المدينة وجلس ينتظر السيدة مريم هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة مريم فانها ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معد لها في ذلك القصر فوجدت الوزير الاعور جالسا في ذلك المجلس متكئا على مخدة من ريش النعام وهو مستح أن يمد يده اليها أو يخاطبها فلما رأته ناجت ربها في قلبها وقالت اللهم لا تبلغه مني أربا ولا تحكم علي بالنجاسة بعد الطهارة ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست في جانبه ولاطفته وقالت له ياسيدي ما هذا الاعراض عنا هل هو منك تيه ودلال علينا ولكن صاحب المثل السائر يقول اذا بار السلام سلمت القعود على القيام فان كنت ياسيدي الوزير ما تجيء عندي وتخاطبني أجيء أنا عندك وأخاطبك فقال لها الوزير الفضل والجميل لك يا ملكة الديار الافرنجية والبلاد الرومية وهل أنا الا من بعض خدامك وأقل غلمانك وانما أنا مستح أن أقدم على مخاطبك الفخيمة لانك الملكة العظيمة ووجهي مثل في الارض فقالت دعنا من هذا الكلام وائتنا بالأكل والمشرب وفي الحال نادى المدام فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدمه وأمرهم باحضار الأكل والمشرب فقدموا له سفرة فيها ما درج وطار وسبح في البحار من سمان وأفراخ الحمام ورضيع الضأن وأوز سمين ودجاج محمر ومن غالب أنواع الالوان فمدت السيدة مريم يدها الى السفرة وأكلت وصارت تلقم الوزير وتقبله في فمه وما زالا يأكلان حتى اكتفيا من الاكل ثم غسلا أيديهما وبعد ذلك رفعت الخدام سفرة الطعام وأحضروا سفرة المدام فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه وزادت في تعليل مزاجه أكثر مما كان يكفيه حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما غاب عقله عن الصواب وتمكن منه الشراب مدت يدها الى جيبها وأخرجت منه قرصا من البنج البكر المغربي الذي اذا شم منه الفيل أدنى رائحة نام حولا من الاعوام وكانت أعدته لهذه الساعة ثم غافلت الوزير وفركته في القدح وملأته وأعطته اياه

فطار عقله من الفرح وما صدق انها تناوله اياه فتناول القدح وشربه فما استقر في جوفه حتى خر صريعا على الارض في الحال فقامت السيدة مريم على قدميها وعمدت الى خرجين كبيرين وملأتهما مما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر واليواقيت وأصناف المعادن المثمنة ثم حملت معها شيأ من المأكل والمشرب ولبست آلة الحرب والكفاح من سائر أنواع السلاح وأخذت معها لنور الدين ما يسر من الملابس الملوكية الفاخرة وأهبة السلاح الفاهرة ثم انها حملت الخرجين على اكتفها فرحة بما أصابته من حصول الارب والمسير بصحبة محبوبها الى بلاد العرب * وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت الى نور الدين هذا ما كان من أمر مريم ﴿وأما﴾ ما كان من أمر نور الدين العاشق الحزين فانه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يده فأرسل الله عز وجل عليه النوم فنام وسبحان من لا ينام وكانت ملوك الجزائر في ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة على سرقة هذين الحصانين أو أحدهما وكان في تلك الايام عبد أسود تربى بالجزائر يعرف بسرقة الخيل فصارت ملوك الافرنج يرشونه بمال كثير لاجل أن يسرق الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين يعطوه جائزة كاملة ويخلعوا عليه خلعا سنية وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة أفرنجة وهو مختف فيها فلم يقدر على أخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبهما للوزير الاعور ونقلهما الى الاصطبل فرح العبد فرحا شديدا وطمع في أخذهما وقال وحق المسيح الآن اطمأنيت على سرقتهما ثم ان العبد خرج في تلك الليلة قاصدا ذلك الاصطبل ليسرق الحصانين فبينما هو ماش اذ لاحت منه التفاتة فرأى شخصا نائما وهو نور الدين ومقاود الحصانين في يده فعرفهما فتقدم اليه ونزع المقاود من رؤسهما ومشى قليلا وأراد أن يركب واحدا ويسوق الآخر قدامه واذا بالسيدة مريم قد أقبلت وهي حاملة للخرجين على كتفها فظنت ان العبد نور الدين فناولته احد الخرجين فوضعه على الحصان ثم ناولته الثاني فوضعه على الحصان الآخر وهو ساكت وهي تظن انه نور الدين ثم انها خرجت من باب المدينة والعبد ساكت فقالت له يا سيدي نور الدين مالك ساكت فالتفت العبد اليها وهو مغضب وقال لها أي شئ تقولين يا جارية فسمعت بربرة العبد فعرفت أنها غير لغة نور الدين فرفعت رأسها اليه ونظرته فوجدت له مناخير كالابريق فلما نظرته صار الضياء في وجهها ظلاما فقالت له من تكون ياشيخ بني حام وما اسمك بين الانام فقال لها يابنت اللئام أنا اسمي مسعود سراق الخيل والناس نيام فما ردت عليه بشئ من الكلام بل جردت من وقتها السيف وضربته على عاتقه فطلع يلمع من علائقه فوقع صريعا على الارض يختبط في دمه وعجل الله بروحه

الى النار وبئس القرار فعند ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدا منهما وقبضت على الآخر بيدها ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين لتقيه راقدا فى المكان الذى وعدته بالاجتماع فيه والمقاود فى يده وهو نائم يغط فى نومه ولم يعرف يديه من رجليه فنزلت عن ظهر الحصان ولكزته بيدها فانتبه من نومه مرعوبا وقال لها يا سيدتى الحمد لله على مجيئك سالمة فقالت له قم اركب هذا الحصان وأنت ساكت فقام وركب الحصان وركبت السيدة مريم الحصان الثانى وخرجا من المدينة وسارا قليلا وبعد ذلك التفتت مريم الى نور الدين وقالت له أما قلت لك لا تنم فانه لا أفلح من ينام فقال يا سيدتى أنا ما نمت الا من برد فؤادى بميعادك وأى شئ جرى يا سيدتى فاخبرته بحكاية العبد من المبتدأ الى المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدا فى اسراع المسير وقد سلما أمرهما الى اللطيف الخبير وصارا يتحدثان حتى وصلا الى العبد الذى قتلته السيدة مريم فرأته مرميا فى التراب كأنه عفريت فقالت مريم لنور الدين انزل جرده من ثيابه وخذ سلاحه فقال لها يا سيدتى والله أنا لا اقدر أن انزل عن ظهر الحصان ولا أدنو منه ولا أقرب منه وتعجب نور الدين من خلقته وشكر السيدة مريم على فعلها وتعجب من شجاعتها وقوة قلبها ثم سارا ولم يزالا سائرين سيرا حثيثا بقية الليل الى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وانتشرت الشمس على الروابى والبطاح فوصلا الى مرج أفيح فيه الغزلان تمرح وقد اخضرت منه الجوانب وتشكلت فيه الاثمار من كل جانب وأزهاره كبطون الحيات والطيور على غصون أشجاره عاكفات يغردن بحلاوة الأصوات باختلاف اللغات وجداوله تجرى مختلفة الصفات كما قال فيها الشاعر وأجاد ووفى بالمراد

وقانا لفحة الرمضاء واد * وقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا * حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا * ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

﴿ وكما قال الآخر ﴾

واذا ترنم طيره وغديره * يشتاقه الولهان فى الاسحار
وكأنه الفردوس فى أفنانه * ظل وفاكهة وماء جارى

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هى ونور الدين ليستريحا فى ذلك الوادى فلما نزلا به أكلا

من أثماره وشربا من أنهاره واطلقا الحصانين يأكلان في المرعى فصارا يأكلان
ويشربان من ذلك الوادي وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران حكايتهما
وما جرى لهما وكل منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق وما قاساه من البعد
والاشتياق فبينما هما كذلك واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار وسمعا صهيل الخيل
وقعقعة السلاح وكان السبب في ذلك ان الملك لما زوج ابنته للوزير ودخل عليها في
تلك الليلة وأصبح الصباح وأراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك
في بناتهم فقام وأخذ أقمشة من الحرير ونثر الذهب والفضة ليتخاطفها الخدمة
والمواشط ولم يزل الملك يتمشى هو وبعض الغلمان الى أن وصل الى القصر الجديد وطلع
فيه فوجد الوزير مرميا على الفراش لا يعرف رأسه من رجليه فالتفت الملك في القصر
يمينا وشمالا لم ير ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله وأمر باحضار الماء السخن والخل
البكر والكندر فلما أحضروا له ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هزه فخرج
البنج من جوفه كقطع الجبن ثم ان الملك سعط الوزير بذلك ثاني مرة فانتبه فسأله عن
ابنته مريم فقال له أيها الملك الاعظم لا علم لي بها غير انها سقتني قدحا من
الخمر بيدها فمن ذلك الوقت ما عرفت روحي الا في هذه الساعة ولا أعلم ما كان من
أمرها فلما سمع الملك كلام الوزير صار الضياء في وجهه ظلاما وجرد السيف من قرابه
وضرب به الوزير على رأسه فخرج يلمع من أضراسه ثم ان الملك أرسل من وقته وساعته
الى الغلمان والسياس فلما حضروا طلب منهم الحصانين فقالوا له أيها الملك ان
الحصانين فقدا في هذه الليلة وكبيرنا فقد معهما أيضا فاننا لما أصبحنا وجدنا الابواب
كلها مفتحة فقال الملك وحق ديني وما يعتقده يقيني ما أخذ الحصانين الا ابنتي هي
والاسير الذي كان يخدم الكنيسة وكان قد أخذها في المرة الاولى وعرفته حق المعرفة
ولم يخلصه من يدي الا هذا الكلب الوزير الاعور وقد جوزي بفعله ولا رحم الله عظامه
ثم ان الملك قام من وقته وساعته ودعا بأولاده الثلاثة وكانوا أبطالا شجعانا كل واحد
منهم يقوم بألف فارس في حومة الميدان ومقام الضرب والطعان فصاح الملك عليهم
وأمرهم بالركوب فركبوا وركب الملك بجملتهم مع خواص بطارقته وأرباب دولته
وأكابرهم وساروا يتبعون آثارهما فلحقوهما في ذلك الوادي فلما رأتهم مريم نهضت
وركبت جوادها وتقلدت بسيفها وحملت آلة سلاحها وقالت لنور الدين ما حالك وكيف
قلبك في القتال والحرب والنزال فقال لها ان ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال
وأنشد يقول

يا مريم اطرحي أليم عتابي * لا تقصدي قتلي وطول عذابي
من أين لي اني أكون محاربا * اني لأفزع من نعيق غراب

واذا نظرت الفار أفزع خيفة * وأبول من خوفي على أثوابي
انا الأحب الطعن الاخلوة * والكس يعرف سطوة الازباب
هذا هو الرأي السديد ومايرى * من دون هذا الرأي غير صواب

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والنظام أظهرت له الضحك والابتسام وقالت له ياسيدي نور الدين الهمام الزم مكانك وأنا أكفيك شرهم ولو كانوا عدد الرمل ثم انها قامت من وقتها وساعتها وتهيأت للقتال وأطلقت من يدها طرف العنان وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها كانه الريح الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها وافرس أهل عصرها وأوانها لان أباها علمها الركوب على ظهور الخيل وخوض بحار الحرب في ظلام الليل وقالت لنور الدين اركب جوادك وكن خلف ظهري واذا انهزمنا فاحرص على نفسك من الوقوع فان جوادك ما يلحقه لاحق فلما نظر الملك الى ابنته مريم عرفها غاية المعرفة والتفت الى ولده الاكبر وقال له يا برطوط يا ملقب برأس القلوط ان هذه أختك مريم لاشك فيها ولا ريب قد حملت وطلبت حربنا وقتالنا فابرز اليها واحمل عليها ولكن وحق المسيح والدين الصحيح انك ان ظفرت بها لا تقتلها حتى تعرض عليها دين النصارى فان رجعت الى دينها القديم فارجع بها أسيرة وان لم ترجع اليه فاقتلها أقبح قتلة ومثل بها أشنع مثلة وكذلك هذا الملعون الذي معها مثل به أقبح مثلة فقال له برطوط السمع والطاعة ثم برز الى أخته مريم من وقته وساعته وحمل عليها فلاقته وحملت عليه ودنت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يا مريم أما يكفي ماجرى منك حيث تركت دين الآباء والاجداد واتبعت دين السواحين في البلاد يعني دين الاسلام ثم قال وحق المسيح والدين الصحيح ان لم ترجعي الى دين آبائك وأجدادك من الملوك وتسلكي فيه أحسن السلوك لاقتلنك أشر قتلة وأمثل بك أقبح مثلة فضحكت مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيهات أن يعود مافات أو يعيش من مات بل أجرعك أشد الحسرات أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذي عم نفعه وهداه فانه هو الدين الحق فلا أترك الهدى ولو سقيت كؤس الردى فلما سمع الملعون برطوط من أخته هذا الكلام صار الضياء في وجهه كالظلام وعظم ذلك عليه وكبر لديه فالتهب بينهما القتال وغاص الاثنان في الاودية العراض الطوال وصبرا على الشدائد والاهوال وشخصت لهما الابصار فأخذهما الانبهار ثم تجاولا مليا واعتركا طويلا وصار برطوط كلما يفتح لاخته مريم بابا من الحرب تبطله عليه وتسده بحسن صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفتها وفروسيتها ولم يكن لنور الدين شغل الا التضرع

والابتهال لانه لاطاقة له فى النزال ولامقاومة الابطال فى الحرب والقتال ولم تزل السيدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة حتى انعقد على رؤسهما الغبار وغاب الفارسان عن الابصار ولم تزل مريم تحاوله وتجاوله وتسد عليه طرقه حتى كل من ألم الحرب و بطلت همته واضمحل عزمه وضعفت قوته فضربته بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه وعجل الله بروحه الى النار و بئس القرار ثم ان مريم جالت فى حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وطلبت البراز وسالت الانجاز وقالت هل من مقاتل هل من مناجز لا يبرز لى اليوم كسلان ولا عاجز لا يبرز لى الا ابطال أعداء الدين لاسقيهم كأس العذاب المهين ياعبدة الاوثان وذوى الكفر والطغيان هذا يوم تبيض فيه وجوه أهل الايمان وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن فلما رأى الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه وشق أثوابه وقال آه من فرقة الانسان أحبابه و بعد ذلك صاح على ولده الاوسط وقال يابرطوس يا ملقب بخرء السوس ابرز ياولدى بسرعة الى قتال أختك مريم وخذ منها ثار أخيك برطوط وائتنى بها أسيرة ذليلة حقيرة فقال له ياأبت السمع والطاعة ثم انه برز لاخته مريم وحمل عليها فلاقته وحملت عليه وتقدمت بكليتها اليه وتقاتلت هى واياه قتالا شديدا أشد من القتال الاول فرأى أخوها الثانى نفسه عاجزا عن قتالها من عظم ما نظر من قوة شجاعتها وشدة نزالها فأراد الفرار والهرب فلم يمكنه ذلك من عظم باسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولاصقته وضايقته ثم ضربته بالسيف على رقبته فخرج يلمع من ابته وألحقته بأخيه و بعد ذلك جالت فى حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وقالت أين الفرسان والشجعان أين الوزير الاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك صاح أبوها بقلب جريح وطرف من الدمع قريح وقال انها قتلت ولدى الاوسط وحق المسيح ثم انه صاح على ولده الصغير وقال له يا فتيان * يامقلب بسلح الصبيان أخرج ياولدى الى قتال أختك وخذ منها تار أخويك وصادمها المك أو عليك وان ظفرت بها فاقتلها أقبح قتلة ومثل بها أقبح مثلة فعند ذلك برز لها أخوها الصغير وحمل عليها فلاقته بهمتها و براعتها وحملت عليه بحسن صناعتها وقوة شجاعتها ومعرفتها بانواع ملاعب الحرب وفروسيتها * وقالت له ياعدو الله وعدو المسلمين لالحقنك باخويك الطاغين الباغين الى النار و بئس مثوى الكافرين ثم انها جذبت سيفها من غمده وضربته فقطعت عنقه وذراعيه وقد ألحقته بأخويه وعجل الله بروحه الى النار و بئس القرار فلما رأى البطارقة والفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا أشجع أهل زمانهم وقع فى قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة ونكسوا رؤسهم الى الارض وأيقنوا بالهلال والدما

والذل والبوار وأحرقت قلوبهم من الغيظ بلهيب النار فولوا الادبار و ركنوا الى الفرار فلما نظر الملك الى أولاده وقد قتلوا والى عساكره وقد انهزموا أخذته الحيرة والانبهار واحترق قلبه بلهيب النار وقال فى نفسه ان السيدة مريم قد استقلت بنا وان خاطرت بنفسى و برزت اليها وحدى ربما غلبت على وقهرتنى فتقتلنى أشنع قتلة وتمثل بى أقبح مثلة كما قتلت أخوتها لانها لم يبق لها فينا رجاء ولا لنا فى رجوعها طمع والرأى السديد ان أحفظ حرمتى وارجع الى مدينتى واقعد على تخت مملكتى لئلا يذهب من يدى ما بقى فاقداله كما فقدت أولادى الذين كانوا ساعدى وعضدى ثم ان الملك أرخى عنان فرسه ورجع الى مدينته ومحل مملكته فلما استقر فى قصره انطلقت فى قلبه النار من أجل قتل اولاده الثلاثة وانهزام عسكره وهتك حرمته فما استقر نصف ساعة حتى طلب أرباب دولته وكبراء مملكته وشكا اليهم فعل ابنته مريم معه من قتلها اخوتها وهم أولاده الثلاثة وما لاقاه من القهر والحزن واستشارهم فأشاروا عليه كلهم أن يكتب كتابا الى خليفة الله فى أرضه أمير المؤمنين هرون الرشيد و يعلمه بهذه القضية فكتب الى الرشيد كتابا مضمونه بعد السلام على أمير المؤمنين ان لنا ابنتا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسير من أسراء المسلمين اسمه نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصرى وأخذها ليلا وخرج بها الى ناحية بلاده وأنا أسأل فضل مولانا أمير المومنين ان يكتب الى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها وارسالها الينا مع رسول امين من خدم حضرة امير المؤمنين ومن جملة مضمون ذلك الكتاب اننا نجعل لكم فى نظير مساعدتكم لنا على هذا الامر نصف مدينة رومة الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل اليكم خراجها و بعد أن كتب الكتاب برأى أهل مملكته وكبراء دولته طواه ودعا بوزيره الذى جعله وزيرا مكان الوزير الاعور وختمه له هو وأكابر دولته بعد أن وضعوا خطوط ايديهم فيه ثم قال للوزير ان أتيت بها فلك عندى أقطاع أميرين وأخلع عليك خلعة بطرازين ثم ناوله الكتاب وأمره أن يسافر الى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب الى أمير المؤمنين من يده الى يده فسافر الوزير بالمكتوب وسار يقطع الاودية والقفار حتى وصل الى مدينة بغداد فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح ثم سأل عن قصر أمير المؤمنين هرون الرشيد فدلوه عليه فلما وصل اليه طلب الاذن من أمير المؤمنين فى الدخول عليه فأذن له فى ذلك فدخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب الذى من ملك أفرنجة وصحبته من الهدايا والتحف النفيسة العجيبة ما يليق بأمير المؤمنين فلما فتح الخليفة المكتوب قرأه وفهم مضمونه أمر وزراءه من وقته أن يكتبوا المكاتيب الى سائر بلاد المسلمين ففعلوا

ذلك وبينوا فى المكاتيب صفة مريم وصفة نور الدين وأنهما هاربان فكل من وجدهما فليقبض عليهما ويرسلهما الى أمير المؤمنين وحذروهم من أن يعطوا فى ذلك امهالا أو اهمالا أو غفلة ثم ختمت الكتب وأرسلت مع السعاة الى العمال فبادروا فى امتثال الامر وساروا يفتشون فى سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة * هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك وأتباعهم وأما ما كان من أمر نور الدين المصرى ومريم الزنارية بنت ملك أفرنجة فانهما ركبا بعد انهزام الملك وعساكره وسارا الى بلاد الشام وقد ستر عليهما الستار فوصلا الى مدينة دمشق وكانت الطلائع التى ارسلها الخليفة تقدمت قبلهما الى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه مأمور بالقبض عليهما متى وجدهما ليحضرهما بين يدى الخليفة فلما كان يوم دخولهما الى دمشق أقبل عليهما الجواسيس فسألوهما عن اسميهما فأخبراهم بالصحيح وقصا عليهم قصتهما وجميع ما جرى عليهما فعرفوهما وأخذوهما وساروا بهما الى أمير دمشق فارسلهما الى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام فلما وصلوا اليها استأذنوا فى الدخول على أمير المؤمنين هرون الرشيد فأذن لهم فلما دخلوا عليه قبلوا الارض بين يديه وقالوا له يا أمير المؤمنين ان هذه مريم الزنارية بنت ملك أفرنجة وهذا نور الدين المصرى الاسير الذى أفسدها على أبيها وسرقها من بلادها وهرب بها الى دمشق وجدناهما وقت دخولهما دمشق وسألناهما عن أسمائهما فأجابونا بالصحيح فعند ذلك أتينا بهما وأحضرناهما بين يديك فنظر الخليفة الى مريم فرآها رشيقة القوام فصيحة الكلام مليحة أهل زمانها فريدة عصرها وأوانها حلوة اللسان ثابتة الجنان فلما وصلت اليه قبلت الارض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم وزوال البؤس والنقم فأعجب الخليفة حسن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها فقال لها هل أنت مريم الزنارية بنت ملك افرنجة قالت نعم يا امير المؤمنين وامام الموحدين وحامى حومة الدين وابن عم سيد المرسلين فعند ذلك التفت الخليفة فرأى على نور الدين المصرى شابا مليحا حسن الشكل كأنه البدر المنير فى ليلة تمامه فقال له الخليفة هل انت على نور الدين الاسير بن التاجر تاج الدين المصرى قال نعم يا امير المؤمنين وعمدة القاصدين فقال الخليفة كيف اخذت هذه الصبية من مملكة ابيها وهربت بها فصار نور الدين يحدث الخليفة بجميع ما جرى له من اوله الى آخره فلما فرغ من حديثه تعجب الخليفة من ذلك غاية العجب واخذه من العجب فرط الطرب وقال ما اكثر ما تقاسيه الرجال ثم انه التفت الى السيدة مريم وقال لها يا مريم اعلمى ان والدك ملك افرنجة قد كاتبنا فى شأنك فما تقولين قالت يا خليفة الله فى ارضه والقائم بسنة نبيه وفرضه خلد الله عليك النعم وأجارك من البؤس والنقم انك خليفة

في دين الاسلام لانه هو الدين القويم الصحيح وتركت ملة الكفرة الذين يكذبون على المسيح وقد صرت مؤمنة بالله الكريم ومصدقة بما جاء به رسوله الرحيم أعبد الله سبحانه وتعالى وأوحده وأسجد خاضعة اليه وأمجده وأنا قائلة بين يدي الخليفة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فهل في وسعك يا امير المؤمنين ان تقبل كتاب ملك الملحدين وترسلني الى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام ويعظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويعتقدون الوهية عيسى وهو مخلوق بين الانام فان فعلت بي ذلك يا خليفة الله أتعلق بأذيالك يوم العرض على الله واشكوك الى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم فقال امير المؤمنين يا مريم معاذ الله ان افعل ذلك ابدا كيف اردا مراة مسلمة موحدة بالله ومصدقة برسوله الى ما نهى الله ورسوله عنه فقالت مريم اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال لها الخليفة يا مريم بارك الله فيك وزادك هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب وهو اني لا أفرط فيك أبدا ولو بذل لي من أجلك ملء الارض جواهر أو ذهبا فطيبي نفسا وقري عينا وانشرحي صدرا ولا يكن خاطرك الا طيبا فهل رضيت أن يكون هذا الشاب علي المصري لك بعلا وتكوني أنت له أهلا فقالت يا أمير المؤمنين كيف لا أرضى أن يكون لي بعلا وقد اشتراني بماله وأحسن الى غاية الاحسان ومن تمام احسانه انه خاطر بروحه من أجلي مرات عديدة فزوجها به الخليفة هرون الرشيد وأمهرها من عنده بعد أن أحضر القاضي والشهود وأكابر دولته وعقد عليها نور الدين وكان يوما مشهودا ثم بعد ذلك التفت أمير المؤمنين الى وزير ملك افرنجة وكان حاضرا في تلك الساعة وقال له هل سمعت كلامها كيف ارسلها الى ابيها الكافر طاغي وهي مسلمة وربما ساءها واغلظ عليها خصوصا وقد قتلت أولاده فأتحمل أنا ذنبها يوم القيامة وقد قال الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا فارجع الى ملكك وقل له ارجع عن هذا الامر ولا تطمع فيه وكان ذلك الوزير أحمق فقال للخليفة يا أمير المؤمنين وحق المسيح والدين الصحيح لا يمكنني الرجوع بدون مريم ولو كانت مسلمة لاني لو رجعت الى أبيها بدونها قتلني فقال الخليفة خذوا هذا الملعون واقتلوه وانشد هذا البيت

هذا جزاء من عصى * من فوقه وعصا نبه

ثم أمر بضرب عنق ذلك الوزير فقالت السيدة مريم يا أمير المؤمنين لا تنجس سيفك بدم هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربته به فاطاحت رأسه عن جثته فذهب الى دار

البوار وبئس القرار فتعجب الخليفة من صلابة ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على نور الدين خلعة سنية وأفرد لهما مكانا فى قصره ورتب لهما المرتبات مما يحتاجانه وأمر أن ينقل اليهما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاوانى النفيسة وأقاما فى بغداد مدة من الزمان وهما فى غاية اللذة والسرور وبعد ذلك اشتاق نور الدين الى أمه وأبيه فعرض الامر على الخليفة وطلب منه اذنا فى التوجه الى بلاده لزيارة والديه وأقاربه ودعا بمريم وأحضرها بين يديه فأجازه بالتوجه وزوده من التحف والهدايا الثمينة وأرصاهما ببعضهما ثم أمر بالمكاتيب الى أمراء مصر المحروسة وعلمائها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو ووالديه وعياله وأكرمهم غاية الاكرام فلما وصلت الاخبار الى مصر المحروسة فرح التاجر تاج الدين بعود ولده نور الدين وكذلك امه فرحت بذلك غاية الفرح وخرج للقائه الكبراء من الامراء وارباب الدولة والرؤساء على حسب وصية الخليفة ولاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا للعالمين اجتمع فيه المحب والمحبوب واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل لهم الضيافات فى كل يوم على كل واحد من الامراء والاحباب الظرفاء وفرحوا بهم الفرح الزائد واكرمهم الاكرام المتصاعد ولما اجتمع نور الدين بوالديه فرحا به غاية الفرح وزال عنهما الهم والترح وكذلك فرحا بالسيدة مريم واكرماها غاية الاكرام ووصلت اليهم الهدايا والتحف من سائر الامراء والتجار الفخام وصاروا كل يوم فى انشراح جديد وسرور اعظم من سرور العيد واقاموا فى فرح ولذات ونعم جزيلة مطربات واكل وشرب وسرور مدة من الزمان الى ان اتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحى الذى لايموت وبيده مقاليد الملك والملكوت

بحمده تعالى قد تم طبع هذه القصة العجيبة البهية المشتملة على ماجرى لعلى نور الدين المصرى مع جاريته مريم الزناريه وذلك الطبع الزاهر والوضع الانيق الباهر بالمطبعة الادبيه الكائنة بسوق الخضار القديم بمصر المحميه ادارة ذى الهمة السامية القدر حضرة محمود افندى خضر وذلك فى أواخر شهر رمضان سنة ١٣١٨ هجريه على صاحبها افضل الصلاة وازكى التحيه

تم